شيخ الظل

الطبعة الأولى – عن النخبة للطباعة والنشر والتوزيع

Elnokhbapublish.com

1441 هـ – 2020 م

رقم الإيداع: 7411 / 2020

الترقيم الدولي: 6 – 479 – 838 – 977 – 978

الكتاب: شيخ الظل

المؤلف: البدري الشريف المناعي

جميع حقوق الطبع محفوظة للناشر

النخبة للنشر والطباعة والتوزيع

6 شارع رجاء عبدالرسول، المتفرع من شارع وادى النيل

أمام سور نادى الزمالك– الجيزة – مصر – 01288688875

E-mail: alnokhoba@gmail.com

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر

طبع في مصر

شَيخ الظل

رواية

البدري الشريف المناعي

النخبة
للنشر والطباعة والتوزيع
2020

جزيل الشكر والتقدير للصديق الأستاذ حسين المزداوي لمراجعته النص ولملاحظاته القيمة، وكذلك جزيل الشكر للصديق الفنان الكبير رضوان أبو شويشة لرسمه صورة الغلاف.

على سبيل التقديم

وقراءة مقتضبة لرواية شيخ الظل

د. أحمد ابراهيم الفقيه

اختار مؤلف رواية شيخ الظل، الدكتور البدري الشريف، أن ينسج خيوطها ويدير أحداثها، حول عوالم ومناخات أهل التصوف والأذكار والروحانيات، دون أن يتبنى أو يبارك كل ما يحيط بهذه العوالم من أفكار ومفاهيم وما يمارسه أصحابها من عادات وتقاليد وما يؤمنون به من أسس وقواعد يحرصون على مراعاتها إلى حد التقديس.

وإنما الكاتب يستغلها فيما يفيد الجوانب الفنية لتشييد البناء الروائي، ويسهم في رسم ملامح الشخصيات وتطوير الأحداث، وسبر أغوار النفس البشرية التي تأخذ أولوية الاهتمام والتركيز في هذا العمل السردي الطويل.

بل هو يقول ما يفيد أن له ملاحظات وتحفظات على عالم الصوفيين يسوقها على لسان أستاذ أجنبي جامعي يحاضر في إحدى أكاديميات الغرب من أهل الاستشراق إذ يقول:

إن الصوفية تعبر عن تجربة ذاتية تخص صاحبها. إنها تعتمد على القلب والكشف للوصول إلى المعرفة، ولا يمكن التيقن من صحة ذلك من الناحية العلمية.

وتساءل المستشرق عمّا يستفيده الناس من الزاهد الذي يحرم نفسه ويعيش عزلته، ربما هو يعيش حالة من الرضا الذاتي، ولكن ذلك لا يفيد الفقراء ولا يوفر لهم طعامًا، وهو بزهده وعزلته عن الناس لا يقدم لهم حلًا، ولا يساهم بدور في خدمة المجتمع. نعم فالصوفية قد تكون منهجًا خاصًا لحياة بعض الناس، ولكن ما نحتاجه هو من يفكر ويستعمل العلم.

ولكن الرواية في نسيجها العام لا تتبنى هذا الرأي على علاته، فقد أظهرت من خلال ما قام به شيخ الظل ومجموعته من أعمال خيرية، أنه يمكن أن يكون لأهل التصوف عندما يسخرونه للخير والمنفعة العامة، ما يناقض هذه الأطروحة ويؤكد عكسها. كما أن ما يسميه المستشرق علمًا، لا ينزع عن الصوفية حقيقة أنها تنتمي لنوع من العلوم غير ما يسميه العلوم التجريبية أنها العلوم الروحية والعرفانية التي تعتمد على لحظات الكشف والاشراق. وكيف لا يكون نفعًا وفائدة وخيرًا يعود على عامة الناس عندما نرى شيخ الظل قادرًا بقواه الروحية العرفانية على أن يعالج المرضى ويشفي العليل من علته.

وتبدا الرواية عندما نلتقي بمهندس شاب يعيش في ضاحية من ضواحي طرابلس، حيث تنتمي أسرته وتعيش منذ عدة أجيال، وتتملك مزرعة آلت اليه وصارت مكانًا محببًا يلجأ اليه ويلتقي فيه بأصدقائه ويقضى فيه أوقات فراغه بعد أن ينتهي من عمله الوظيفي كمهندس إنشاءات في قطاع حكومي، ويصوره لنا الكاتب باعتباره شخصًا له سمعة طيبة في محيطه الاجتماعي يحظى بمحبة الناس وتقديرهم لأمانته ونزاهته وحسن سلوكه.

أكمل تعليمه الجامعي في دولة من دول الغرب هي ألمانيا، وبعد أن عاش مندمجًا في أجواء المتعة والحرية الشخصية، وفرص الاختلاط بالجنس الآخر التي يتيحها المجتمع الغربي، وتكوين العلاقات بين الجنسين بعيدًا عن صرامة القيم الأخلاقية والدينية في مجتمعات الشرق.

ورغم ارتباطه بصديقة أقام معها علاقة حميمية في بلاد الدراسة، قرر أن يعود إلى بلاده ويتخلى عن فرص العمل والإقامة التي كانت متاحة له هناك، لكي يسخر معارفه لخدمة بلاده في المجال الهندسي، وينعم بالاستقرار والزواج وحياة الأسرة والأبناء بين أهله وذويه في هذه الضاحية من ضواحي العاصمة الليبية.

ويكتشف ذات يوم، أثناء وجوده في المزرعة، أن الشمس لا تصنع له ظلًا، كما تفعل مع بقية الموجودات التي تحيط به في المزرعة، من

أشجار وجدران وبشر وحيوانات، ولم يجد تفسيرًا لهذا الأمر، إلا ما قاله أصدقاء من أهل التقوى والالتزام الديني، وهو أنه شف شفافية البلور، الذي لا تصطدم به أشعة الشمس، فتنفذ عبره دون أن تصنع له ظلاّ.

هكذا تبدأ قصة التحول الكبير في حياة هذا المهندس الشاب، الذي سيجد نفسه بعد هذا الحادث، محاطًا بحلقة من المريدين، يدفعون به في طريق الولاية الدينية، الصوفية، العرفانية، ويتولى فيما بعد مركزًا قياديًا في هذا العالم الحافل بالأسرار والكرامات والغيبيات.

غير أن الرواية ليست كلها تعاملًا مع عالم الصفاء والنقاء والتواصل الروحي بين أولياء الله الصالحين وأتباعهم ومريديهم، فالسرد مسربل بأحداث سياسية، وأجواء قهر وقمع، وتعذيب لمعارضي الحاكم، يمارسه جلاوزة من أتباعه وحراسه، ونظام سياسي استبدادي ينشر ظله الثقيل على العالم الذي تدور فيه أحداث الرواية، ويشكل إطارًا لشخوصها وأفعالهم وعلاقاتهم، بل يتداخل مع عوالمهم الروحية ويظهر وجهًا آخر للواقع يناقض ذلك الوجه.

ثم ليس غريبًا بعد ذلك أن يحدث صدام وصراع بين الاثنين، ومثال ذلك عندما نرى غرفة من غرف التعذيب التي يساق إليها رجل صالح هو علي الدرويش، لمجرد أنه تفوه بكلمة من كلمات اهل الله هي «كل في فلك يسبحون»، تعود أن يرددها بشكل عفوي ومتواتر دون ارتباطها

بتوقيت أو مناسبة ما، فقط تصادف أن قالها أثناء مروره بمكان عام، يتواجد فيه جهاز تلفاز، وكان التلفاز يعرض مقطعًا لخطاب من خطب الحاكم، فاعتبر أهل الأمن أن كلمة الدرويش تعليقًا سلبيًا أو ساخرًا على الخطاب، وأخذوا الرجل إلى التحقيق، واستخدموا معه أساليبهم في مثل هذه المناسبات، وهي انتزاع أقواله عن طريق التعذيب، واكتشفوا لحظة أن باشروا تعذيبه، أنه رجل من أهل الكرامات، قادر على أن ينتقم لنفسه ويرد كيدهم إلى نحورهم، وتعذيبهم له، إلى تعذيب لهم، عندما شلت يد رجل الأمن الذي بدأ تعذيبه، وكانت الرسالة هنا واضحة، تقول بأنه لا أحد في مأمن من ظلم النظام وقهره، فطالما وصل هذا القهر إلى رجل درويش من أهل الله، فلا أحد بمنجاة منه.

تسير أحداث الرواية فوق خطين متوازيين، مثل خطي سكة حديد القطار، خط الدولة القمعية الخالية من الروح والحس الإنساني، وخط أهل الولاية وعالم العرفان، حيث تتأكد مكانة المهندس كصاحب سر باتع يحمل ويختزل في شخصه تراث أصحاب الفلاح والصلاح من أهل البلاد على مدى الحقب التاريخية ويشكل امتدادًا لهم، ويستقطب اهتمام الناس وحبهم، ويكرسه المريدون زعيمًا روحيا لإحدى الطرق الصوفية، فيسخر المهندس هذه الزعامة وهذا الحب للتوسع في أعمال الخير ومشاريع البر والاحسان

وخدمة الفقراء ورفع الضيم والبؤس عنهم، وفتح أبواب الرزق أمام أهل الحاجة، إذ تتكاثر الهبات والنذور التي يفلح في توظيفها واستثمارها في صناديق لتأهيل العاطلين، وإعانة الأسر المعوزة وتقديم الخدمات التعليمية والصحية لمن يحتاجونها.

ومع تنامي هذا الخط الذي يمثل الخير والتراحم والتضامن والـوداد بين الناس، يتنامى في الجانب الآخر الخط الموازي والمناقض له، خط الشر والحقد الذي يمثله نظام الاستبداد والقهر، ويصل إلى نقطة التصادم والانفجار، فكان لا بد لهذا الشخص الذي استحوذ على محبة الناس فرفعوه إلى مقام الزعيم الروحي، أن يرى فيه النظام الحاكم تهديدًا لمكانة رأس النظام، فتصدر الأوامر بتصفيته وإنهاء حياته عبر افتعال حادث مروري ينهي حياته وينهي اسطورته.

هذه هي التيمة الرئيسية للرواية، إلا أنها لا تقتصر على هذين الخطين اللذين يمثلان الأبيض والأسود في الحياة، إذ هناك بالتأكيد مناطق رمادية ودرجات لونية كثيرة بينهما، ولحظات يظهر فيها الضعف الإنساني لدى أهل الحظوة الالهية، كما تظهر ومضات إنسانية في قلوب بعض أتباع النظام أنفسهم.

بل هناك شخصيات استطاعت أن تحقق التوازن بين الجانبين ويكون لها قدم فوق أرض النظام بكل ما فيه من مباذل وسوء، وقدم

فوق أرض الجماعات الروحانية بكل ما تمثله من صفاء النفس ونقاء السريرة مثل الشيخ عثمان، الذي يرتبط بعلاقة وثيقة مع رجل الأمن القوي الحاج سعيد، وفي نفس الوقت هو الوسيط بينه وبين أهل الصلاح والتقوى.

كذلك فإن المهندس الذي أصبح شيخ الظل، ظهر في بداية الرواية وهو طالب جامعي في المانيا، يعيش حياة لهو ومجون، ويعاشر صديقة من تلك البلاد معاشرة الأزواج دون زواج.

كما نجد محطات أخرى في الرواية، تتعامل مع قاع المدينة بما في هذا القاع من مباذل ودعارة ونماذج شائهة، يقدمها السرد باعتبارها ضحايا ظروف اجتماعية قاسية مثل نموذج «الشيركو»، وهذا هو اسمه، وامرأة منحرفة اسمها العفريتة.

كما نجد هذا الضعف لدى جلاوزة النظام إزاء القوى الغيبية التي يملكها أهل العرفان وأصحاب التقوى.

هذه وقفة مع أحداث الرواية ومضامينها، ولكن الرواية لا تكون رواية بالمضامين والأفكار والأحداث فقط، وإنما بتقنيات السرد، بمعني ليس ما قاله الكاتب ولكن كيف قاله وأي وسائل وأساليب قارب بها موضوعه، ومدى قدرته على سبر أغوار الشخصيات وقوة استخدامه للغة وتعامله مع أسرارها.

ثم كيف استطاع أن يتعامل مع الصراع الذي يحتدم بين هذين العالمين، وكيف أداره بطريقة تكشف أن الأشياء ليست دائمًا بظواهرها وإنما خلف هذا الظاهر باطن وجوهر قد يكون مخالفًا لما تبدى على السطح.

لقد قتل النظام شيخ... فهل كان ذلك القتل أو الاغتيال انتصارًا حقًا للنظام على أهل الصلاح والعرفان، أم أن هذا القتل جاء يحمل بذور الثورة ضد ذلك النظام وبداية النهاية الإجرامية وطغيانه، كما توحي الحركة التي شهدتها المقبرة عند دفن شيخ الظل.

وهنا أراه فعلًا شيئًا استثنائيًا أن تأتي الرواية الأولى لكاتب من الكتاب بمثل هذا الزخم وهذه القوة في المعالجة وهذا الثراء اللغوي والجزالة في الأسلوب والمعالجة.

ولكن استغرابنا لن يطول عندما نعرف أن الكاتب جاء إلى هذا اللون من الكتابة الابداعية الأدبية، بعد تجارب مع كتابة المقالة الفكرية والسياسية وحالة الاشتباك والمعايشة لقضايا المجتمع.

وهكذا نجح مؤلف الرواية «الدكتور البدري الشريف» من الانتقال للتعامل مع واقع الحياة بالرمز واستخدام الأقنعة ونماذج العالم المقتبس من عالم الخيال، عن طريق الكتابة السردية الطويلة،

بعد أن قضى أعوامًا كثيرة يكتب كتابات فكرية وسياسية ويتعامل تعاملًا مباشرًا مع الواقع ومفرداته وأحداثه وقضاياه دون تقنيات الفن وأساليبه وتعاويذه السحرية.

أهنئ الصديق البدري الشريف بإنجازه السردي المتميز، واثقًا أنه سيغني المكتبة الليبية بمزيد الأعمال الروائية التي تعكس روح الواقع في بلادنا- ليبيا- وتؤرخ تاريخًا ابداعيًا فنيًا لمشاعر وانفعالات ورؤى أهلها وشعبها بكل ما يحتويه الفن من تكوينات جمالية وقدرة على احتواء هذا الواقع وتقديمه حاملًا عبق هذه الأرض وعبيرها.

9 ابريل 2019

(1)

كان يومًا من أيام شهر مارس، وكانت الشمس تسطع، تشع بدفئها المعتاد في مثل هذا الفصل وتنشر ضوئها، فيتخلل الفراغات بين الأغصان، راسمًا لوحات فنية متعددة من الظل منتشرة على الأرض.

الظلال تتراقص مع حركة الريح الخفيفة، كأن حفيف الأوراق وهي تتناغم مع تغريد الطيور، تعزف موسيقى كونية تستحضر الماضي بكل تفاصيله.

«الباشمهندس»- كما يطلق عليه أصحابه وأهل بلدته- يتمشى هنا وهناك، يتفقد تلك الشجرة، وذاك المكان، وينظر إلى أعلى بين الحين والحين إلى تلك النخلة الباسقة.

يا الله... كانت هذه نخلة صغيرة يلتقط منها البلح هو وأصحابه، وها هي اليوم قد طالت ولا يمكنه الوصول إلى بلحها، وكأنها عاتبة عليه على كل هذا الغياب.

كانت هذه النخلة بالذات نخلته المفضلة التي يرتبط معها بحنين خاص، فقد شهدت وسمعت الكثير من أسراره أيام الصبا، وشهدت الكثير من مشاكساته ومقالبه التي كان يتفنن فيها مع أصحابه.

ايه يا زمن، تنهد الباشمهندس، وهو يأخذ نفسًا عميقًا متذكرًا تلك الأيام الخوالي بكل تفاصيلها، وكأنها حدثت يوم أمس.

هكذا كان الباشمهندس كلما أحس بضيق يلجأ إلى جنانهم القديم، يلتمس فيه السكينة، ويعيش مع ذكريات الصبا في هذا المكان.

هنا في هذا الركن ما يزال بيتهم القديم المبني بالطين، وهنا كانت أمه رحمها الله تستقبله هو وأصحابه عندما كانوا يأتون يعملون واجباتهم المدرسية معًا، تهتم بهم وتصنع لهم الشاي، وتقدم لهم خبزة التنور.

جميع أصحابه كانوا ينظرون إليها كأمهم، ولا يشعرون بتكلف معها، يطلبون منها ما يريدون، وكانت تعاملهم بكل عطف وحنان، وإن غاب أحدهم تسأل عنه وعن سبب غيابه، ولا ترتاح حتى يؤكدون لها بأن صاحبهم الغائب في حالة جيدة، وإنه سيأتي المرة القادمة.

وهنا كان والده رحمه الله، رغم ما كان يتصف به من بعض الشدة، يستقبل أصحاب ابنه بوجه بشوش، ويشجعهم على الدراسة، ويحدثهم بإسهاب عن تلك الزيتونة، وعن أشجار الليمون التي تملأ الجنان، وعن النخيل وأنواعه، ومزايا كل نوع منه.

فهذا البياضي يصلح للتخزين كبرسيل، وهذا الطابوني تصنع منه أجود أنواع العجين، وهذا البرنصي الرطب المفضل لديه، وهذا اللمسي، وهذا العامي، وهذا الحلاوي، وهذا، وهذا...

ويقول لهم دائمًا: «لقد قمت بغرس كثير من هذه الأشجار، ولا أطيق أن أراها ذابلة مهملة».

كان مهتمًا بأشجاره وكأنها أبناؤه، وكان دائمًا يحض أبناءه على الاهتمام بها، ويقول لهم «العلم غذاء للعقول وضمان للمستقبل، ولكن الزراعة غذاء للإنسان وضمانة أيضا للمستقبل، ولا يجب التفريط فيها».

كان الحاج مفتاح شيخًا للحي، يتمتع باحترام كل السكان لما عرف عنه من معرفة بعلوم الدين، ولِمَا يتمتع به من أخلاق فاضلة جعلت كل سكان الحي يلجؤون إليه لحل مشاكلهم، وقد كان الحاج مفتاح دائمًا مهتمًا بسكان حيه، يستقبلهم في بيته، ويزورهم عند كل مناسبة، ولا يبخل بمساعدة من يقصده منهم لطلب المساعدة.

الباشمهندس اليوم حائر، يفكر، يروح ويجيء في الجنان، يتخلل شجيرات الليمون، يوزع نظره في كل أنحائه، حينًا صوب شجيرات الرمان التي تغير حالها ولم تعد كما كانت، وحينًا يوجه نظره نحو الأرض التي ما تزال على عهدها، تتناثر فوقها أوراق الشجر، وبعض وريقات الأزهار بألوانها المختلفة، وحينًا ينظر إلى السماء، كأنه ينتظر حلًا يأتيه من حيث لا يعلم.

كان يمسك بيده عصا قطعها من بعض الأغصان، يلوح بها هنا وهناك، يمنة ويسرة، ويرفعها حينًا إلى السماء، ويضرب بها

الأرض حينًا آخر، كأنه يبحث عن شيء ما للإجابة عما يدور في رأسه هذه الساعة!

- ما العمل؟

لقد كافح طوال حياته، والتزم النزاهة والصدق، والأمور في البلاد قد تغيرت، فالوظيفة براتبها مهما علت درجة الموظف لم تعد كافية لتوفير متطلبات الحياة التي زادت.

الكثير من زملائه لجؤوا إلى اتباع التقاليد الجديدة التي أصبحت سائدة في المجتمع، والمبنية على الواسطة والمحسوبية وبناء علاقات مع أهل النفوذ، لتبادل الخدمات وتقاسم المصالح، لكنه ما يزال على عهده، لا يتبع مثل هذه الأساليب، ومسكر رأسه كما يصفه معارفه.

نعم ماذا سيعمل؟

فهو حقيقة سعيد بأسرته، خاصة زوجته التي تتفهمه جيدًا، ولم تثقله بطلباتها، بل كانت خير داعم له للصمود والمقاومة وعدم لجوئه إلى النفاق والتملق للمسؤولين.

- ولكن ماذا سيفعل؟

وها هي ابنته فاطمة التي تملك عقله، ويرتبط بها ارتباطًا كبيرًا، قد طلبت منه اليوم طلبًا، وليس لديه الإمكانيات لتنفيذه؟

- آه... عادت به الذاكرة إلى يوم ولادتها!

ما يزال يتذكر كل التفاصيل. كانت الساعة الرابعة صباحًا، حاول أن ينقل زوجته بالسيارة إلا أن السيارة لم تشتغل، فطرق في ذلك الصباح الباكر الباب على جاره الذي هب لنجدته وأوصله وزوجته إلى مستشفى الجلاء والولادة بطرابلس؛ وهناك كان أول ما واجهه عند وصوله إلى المستشفى، إنه لا توجد عربة صالحة ينقلون عليها المرضى، وأثناء دخوله إلى بهو المستشفى، رأى هناك امرأة ملقاة على الأرض تصرخ وهي في حالة مخاض.

وفق في مصاحبة زوجته ومساعدتها للوصول إلى قسم الولادة، حيث استلمتها إحدى الممرضات وأدخلتها، ولم تمض فترة طويلة حتى جاءته الممرضة مبتسمة تبشره بقدوم مولودته الصغيرة. ودون أن يفكر صاح:

فاطمة... فاطمة... وأحس كأن أمه قد بعثت من جديد.

رغب في أن يدخل كي يرى صغيرته، ولكن الممرضة طلبت منه الانتظار، فالقسم يعج بالسيدات الحوامل اللاتي يتنظرن دورهن.

كانت ولادة فاطمة دفقة من الأمل انبعثت في نفسه، بعد أن بدأ يأخذه اليأس نتيجة للأوضاع الصعبة التي تمر بها البلاد، ودرجة الاحتقان الموجودة في الشارع.

كانت عشرية الثمانينات من القرن الماضي فترة صعبة في ليبيا، حيث قفلت المحلات التجارية والأسواق والمقاهي وتوقف كل نشاط رياضي وثقافي، وألقت الكآبة بظلالها على كل المدن الليبية.

فقد كانت الشوارع خالية إلا من المسيرات اليومية التي تجوب البلاد طولًا وعرضًا، بمناسبة وبدون مناسبة.

جاءته فاطمة لتبعث في نفسه الأمل والشعور باستمرار الحياة، فالحياة مستمرة، والحياة للأصغر، وليست للأقوى، وأحس بأن فاطمة ستنتصر بجيلها وستصنع حياة أفضل.

كانت فاطمة بالنسبة للباشمهندس بارقة الأمل، وكانت ملجأه الذي يركن إليه، يستمد من ضحكاتها وبراءتها قوة تعينه على نسيان كل التعب والإرهاق.

وكان كلما عاد من العمل إلى البيت، يذهب إليها مباشرة، يلاطفها ويداعبها ويبثها كل أحلامه.

كبرت فاطمة ولم تعد ابنته فقط، بل صارت صديقته المقربة والفتاة المدللة في البيت، وكان يمازح زوجته فيقول لها «لا تغاري من فاطمة، فأنت الملكة وهي الأميرة»، فترد عليه بابتسامة:

طالما الأمر يتعلق بفاطمة، ولا يهمك، ربي يعقد عسلكم.

ها هي فاطمة قد كبرت، وفي طريقها إلى الزواج، وقد طلبت منه أن يكون فرحها بصالة الهناء، وستدعو كل صديقاتها لحضور الحفلة.

صالة الهناء هي أحسن صالة في تاجوراء، وهي أيضًا أغلاها، إيجارها في الليلة يزيد عن خمسة آلاف دينار، أضف عليها مستلزمات الفرح الأخرى، والوليمة التي سيقيمها لأقاربه وأصحابه بالمناسبة، فهو يحتاج لما لا يقل عن خمسة عشر ألف دينار.

من أين له كل هذا المبلغ وكيف سيتدبره؟

- يلعن أبو الحاجة.

تمتم في نفسه:

- في الحاجة تكمن العازة!
- متذكرًا مقولة الكتاب الأخضر «في الحاجة تكمن الحرية».

ابتسم وهو يستحضر كل تلك الشعارات ومقولات الكتاب الأخضر الكثيرة التي حفظها من كثرة محاصرتها له في كل مكان... في التلفزيون، وفي العمل، وفي الشوارع التي تمتلئ طرقاتها بلافتات تلك الشعارات.

ماذا سيعمل؟

هل يبيع قطعة من أرض الجنان؟

لا.. لا، هذا الجنان يعني له أكثر من أنه أرض. إنه تاريخه وهويته وذاكرته. سيبقيه حتى يرثه أبناؤه من بعده، ويستمر الجنان كما هو بنخيله وليمونه وزيتونه ورمانه؛ إنه قطعة من الجنة لا يمكن التفريط فيها.

هكذا علمه أبوه؛ الأرض لا تفريط فيها، وها هو الآن فهم سِر تشبث أبيه بالأرض؛ الأمر يتجاوز الجانب المادي، إنه ارتباط روحي وعاطفي بهذه الأرض، وكل ما عليها من أشجار ونباتات.

الآن فهم أن الأشجار حية وأن تلك النخلة التي يحبها ويرتبط بها ليست فقط جدع وجريد وبلح، بل فيها روح، وهناك تواصل غير مرئي معها.

لا.. لا كل شيء ولا بيع قطعة من الجنان. لا بد أن يتدبر أمره بطريقة ما أخرى. وسيقيم الفرح كما تريد فاطمة.

نعم لن يخذلها، ولن يخذل الجنان وما يحويه من أصدقائه أشجار النخيل وشجيرات الليمون والرمان، لا بد أن تكون هناك طريقة أخرى.

كانت يده لا تكف عن ضرب الأرض بالعصا التي بيده، وهو يداوم في حركته حتى وصل حيث البئر، وحيث تقف شجرة التوت وارفة تملأ العصافير أغصانها بألوانها الزاهية.

هذا عصفور يمتزج فيه اللون الأخضر باللون الأزرق، وهذا تشوبه الحمرة أكثر، وهذا رمادي تتخلله خيوط بزرقة السماء، عصافير بألوان متعددة تفوق الوان الطيف، تغرد وتقفز من غصن لآخر.

وقف مشدوهًا وهو يراقبها، ويستمع إلى سمفونيتها الرائعة التي ترتفع حينًا، وتخفت قليلًا حينًا آخر.

وبينما كان في لحظة تجليه مع هذه الحياة التي بعثتها العصافير في نفسه، شاهد واحدًا منها يقف على غصن قريبًا منه، ويستمر في تغريده كأنه يخاطبه. أمعن النظر في هذا العصفور، وفعلًا كان يتوجه إليه ويستمر في تغريده، كأنه يقول له شيئا.

اندهش الباشمهندس، ونظر حوله، فعلًا إن العصفور يخاطبه! ولكن ماذا عساه يقول؟

تجرأ الباشمهندس وسأل العصفور:

- هل تحدثني أنا.. وماذا تريد؟

لم يتوقف العصفور عن التغريد، ولم يستطع الباشمهندس الذهاب وترك العصفور وهو يحدثه، شعر بالحيرة.

لو قال مثل هذا الكلام لعدّوه مجنونًا، ولكن حقيقة شعر بأن العصفور يخاطبه ويبلغه رسالة ما.

بعد أن انتهى العصفور من تبليغ رسالته طار بعيدًا، وواصل الباشمهندس سيره تاركًا شجرة التوت على يمينه، متجهًا نحو المخزن الذي عادة ما تحفظ فيه معدات الفلاحة.

وفجأة أحس بقشعريرة تسري في جسده، وبصوت حركة ما من ورائه. التفت فرأى قطًا كبيرًا أسود حالك السواد ينظر إليه ويمعن النظر، قفز القط بعيدًا واختفى فجأة، لا يعرف أين ذهب ولا في أي اتجاه.

شعر الباشمهندس بإحساس غريب، وأصابه بعض الاضطراب، ثم واصل سيره.

خطا عدة خطوات إلى الأمام تحت وهج الشمس الربيعية، وتوقف فجأة. بل انتفض! يا الهي ماذا يحصل؟

التفت ذات اليمين وذات الشمال! ونظر حيث الأشجار تقف وترسم ظلها على الأرض، وأعاد النظر حوله.

- يا إلهي غير معقول.

شعر بالعرق يتصبب من جبينه، وبصداع مفاجئ.

ما يجري غير معقول. لا بد أن هناك خطأ ما.

قفز من حوله وحرك عصاه في كل الاتجاهات، وصرخ يا إلهي ليس من المعقول.

- ماذا يحدث؟

- أين ظلي؟
- أين ظلي؟

أصابه الفزع والإرباك، فقد لاحظ بأنه لا يوجد له ظل.

استحضر كل ما تعلمه في علوم الفيزياء وعلم الضوء ولم يجد تفسيرًا لِما يحدث.

بدأت الهواجس تدخل نفسه وشعور من الخوف يجتاحه.

- يا الهي هل أنا ميت؟
- هل أنا روح بدون جسد؟
- كيف لا يكون لي ظل وأنا اقف تحت الشمس، وكل الأشياء حولي لها ظل؟

أمسك عقب العصا التي بيده، وضغطها على ظهر يده حتى خدشت جلده وخرج قليل من الدم منها، وأحس بالألم.

- آه أنا أشعر بالألم، إذا أنا موجود... أنا حي!
- ماذا يحصل؟

شعر لبرهة بحالة من الإغماء، وارتفعت نبضات قلبه.

- لا، لا، لا ربما هو تخيل غير معقول!

أعاد النظر ثانية وثالثة، ولكن تأكد له الأمر بأنه لا ظل له.

شيء ما قد حصل ماذا عساه أن يكون؟

حالة من الاضطراب بدأت تغشاه، وقشعريرة تسري في جسده، وعرق يتصبب من جبينه، وحيرة تملأ رأسه.

- يا الهي.. ماذا جرى لي؟
- ماذا حصل لي؟
- أنا لم أعد إنسانًا طبيعيًا؟
- ربما أنا غير موجود؟
- ربما أنا وحالتي هذه لا يراني الناس؟

أسئلة كثيرة كانت تقفز في رأسه.

وأفاق فجأة على صوت ابنه أحمد يقول له:

- أبي.. أبي ماذا بك، هل أنت مريض؟

أحس عندها ببعض الاطمئنان. ها هو ابنه يراه... إذًا هو موجود بجسده وروحه.

اقترب منه ابنه وأمسكه من يده برفق وقال له هل:

- آخذك إلى الطبيب يا أبي؟ يبدو عليك الإرهاق ما بك؟ هل تشعر بألم أو وجع؟ هل أنت بخير؟

- اطمئن يا ابني أشعر بالصداع فحسب. دعنا ندخل بيت جدك سأستريح هناك قليلا. وأذهب أبحث عن عمك علي الدرويش ولا بد أن تأتيني به فأنا أريده.

(2)

علي الدرويش هذا الصديق الوفي صديق الطفولة، هو أقرب الناس إلى قلبه. كان علي طفلًا يتيمًا يعيش مع أمه، وكان هو والباشمهندس أيام الطفولة يقضيان معظم الأوقات معًا، ويذهبان سويًا إلى الكتاب حيث يتعلمان القرآن؛ كان علي من أذكى الأطفال حينذاك في حفظ القرآن، وكان يجيد إنشاد المدائح ويحفظ الكثير من قصائد المديح النبوي، وكان نجم الكتاب عند موعد الاحتفال بمولد الرسول الكريم حين يبدأ الكتاب في جلسات البغدادي.

الله الله.. كم كان له صوت عذب وجميل. عندما يبدأ علي في الإنشاد تحس وكأن صوتًا من بعيد ينطلق يحمل كثيرًا من الشجن وبه موسيقى عجيبة تأخذك لعالم آخر فيه الكثير من السكينة والإحساس بالرضى والشوق لرسول الله.

كان بعض المشائخ ورجال الشارع يأتون خصيصًا أيام البغدادي للكتاب كي يستمعوا لإنشاد علي الدرويش، وهو ينشد القصائد في مدح الرسول الكريم.

مولاي صلِ وسلم دائمًا أبدًا

على حبيبك خير الخلق كلهم

مولاي صلِ وسلم دائمًا أبدًا

على حبيبك خير الخلق كلهم

كان يرددها الحضور معه في أجواء من التجلي تبعث النشوة والسكينة في قلوب الجميع، وكأنهم يحلقون في سماء عالية ينسون فيها كل هموم الدنيا ومشاغلها.

علي الدرويش لم يكن يخالط كثيرًا بقية الأطفال، وكان صديقه ورفيقه دائمًا الباشمهندس، حيث كانت تربطهما صداقة متينة وعلاقة ربانية لا أحد يعرف سرها.

عندما كبر علي، بدأت تظهر عليه بعض العوارض الغريبة، ففجأة مثلًا عندما يتداول الناس موضوعًا ما، يفاجئهم علي الدرويش بصوت قوي:

- حي.. كل في فلك يسبحون.

تعوّد الناس على تصرفاته الغريبة هذه، وكانوا في المناسبات يحاولون خطب وده لكي يرتل لهم القرآن أو ينشد لهم بعض القصائد، ولكن مع مرور الأيام أصبح علي الدرويش أكثر انعزالًا عن الناس وتحاشيًا لهم.

زادت عزلته عنهم خاصة بعد سفر صديقه المهندس إلى ألمانيا للدراسة، حيث تعود الناس على انقطاعه عنهم ولا يشاهدونه بكثرة إلا عند عودة الباشمهندس في عطلة الصيف لزيارة بلدته.

عندما يعود الباشمهندس يلاحظ سكان البلدة بأن عليًا يكون أكثر ودًا معهم، ودائمًا في رفقة صديقه، يقضي معه معظم وقته حتى يعود ثانية إلى ألمانيا.

ذات يوم كان القائد يخطب في التلفزيون، وكان بعض الناس جلوسًا بالمثابة الثورية بالحى، فدخل علي الدرويش عليهم فجأة وهم متحلقين على التلفزيون يستمعون لخطاب القائد.

صاح علي الدرويش فجأة بصوت مدوٍ:

- حي... كل في فلك يسبحون!

أصيب مَن بالمثابة الثورية بالفزع على صيحته تلك، واحتاروا فيما يقصد؟

لم يمضِ وقت طويل حتى كان علي في قبضة المباحث يسألونه عن قصده من قوله حي كل في فلك يسبحون أثناء خطاب القائد؟ ومن الذي يحرضه على سب القائد؟ ومن معه؟ وما هو التنظيم الذي ينتمي إليه؟ ومن يقوده؟

طالبين منه الاعتراف وقول كل شيء، وإلا فإنه سيرى ما لم يره في حياته كلها.

كانت يداه مربوطتين إلى الخلف، وكان بوجهه علامات الكدمات الناتجة عن ضرب فرقة القبض عليه، ودفعه بقوة في الصندوق الخلفي لسيارة المباحث.

كان علي مندهشًا لأسئلتهم وقال:

– حي. كل في فلك يسبحون.

فضربه أحد أفراد الأمن ضربة قوية على وجهه أدمت حاجبه.

ولكن علياً قال:

– لا أعرف أحدًا. أنا فقط أقول حي... كل في فلك يسبحون دائمًا.

– ماذا تقصد. قال المحقق؟ ولماذا قلتها أثناء خطاب القائد، والناس كانت تستمع إلى الخطاب؟ ألم يعجبك خطاب القائد، أليس كذلك؟

قال علي:

– أنا لم أسمعه، ولا أعرف حتى من كان يتكلم أصلًا.

– ها أنت تعترف بأنك تستخف بخطاب القائد.

وضربه ثانية على وجهه.

كان علي يستقبل تلك اللكمات بصبر، وحيرة، وشفقة على هذا الذي يضربه بدون سبب.

فاجأه المحقق:

- قل لنا عن صاحبك الذي يدرس في ألمانيا. هل تعتقد إننا لا نتابع علاقتكما، وخلوتك به كلما جاء إلى ليبيا؟ قل لنا ماذا كان يقول لك. يحرضك على النظام؟

انتفض علي وكأن عفريتًا ركبه، وصاح بالمحقق:

- لا، لا، صاحبي ليس له أي علاقة، ولم يقل لي شيئًا، ونحن لا نتحدث إطلاقًا عن النظام.

ابتسم المحقق ابتسامة خبيثة، وقال له:

- إذا قل لنا عما كنتم تتحدثون؟
- عما نتحدث؟ أجاب علي، نحن لا نتحدث يا سيدي.

زاد غضب المحقق، وقال له:

- أنت لا تريد أن تعترف، سوف أعلمك كيف تعترف.

ربطوا رجليه ووضعوا عصابة سوداء على عينيه كي لا يرى شيئًا، وبدؤوا يضربونه بالفلقة. وكان الذي يضربه يزيد في قوة ضربه مستعملًا قضيبًا من الحديد، وفي كل ضربة كان علي يتمتم وفي صوته حشرجة وأنين:

- حي. كل في فلك يسبحون.

فجأة صاح الذي يضربه:

– آه آه آه يدي يدي.

لا أستطيع التحرك!

وجمد مكانه لبرهة ثم سقط على الأرض.

اندفع بقية رجال الأمن وأوقفوا زميلهم، وهم في دهشة لما أصابه.

لقد أصيب بجلطة شلت يده اليمنى التي كان يضرب بها، ورجله اليمنى. وأخذوه بسرعة إلى المستشفى.

ارتبك رجال الأمن للمشهد الذى حدث أمامهم، وقدم بعضهم وفك وثاق علي، ونزع العصابة مِن على وجهه، وجلب له أحدهم كرسيًا كي يجلس عليه.

لقد أصابهم الفزع، خاصة أن أحد زملائهم يعرف «علي الدرويش»، أخبرهم بأنه مرابط ومعروف في الشارع وهو حافظ القرآن، وماشي على حال سبيله.

وصلت الأخبار إلى رئيس المديرية، فقدم حيث كان علي متواجدًا، وأخذ في اتصالاته مع المسؤولين، ودبت حركة في مبنى مديرية الأمن، وتمتمة عن الذي حصل، وأن «علي» هذا يبدو إنه مرابط ومن رجال الله.

اتصل الحاج سعيد بالشيخ عثمان، وطلب منه الحضور إلى المركز لأخذ علي إلى بيته، وألا يخبر الناس عمّا حصل له.

الحاج سعيد هو رجل المخابرات القوى والساعد الأيمن للقائد يهابه الجميع وهو صاحب الأمر والنهى في المواضيع المتعلقة بأمن الدولة.

جاء الشيخ عثمان على عجل، واستقبله الضابط المسؤول، وأتوا بعلي، فرحب به الشيخ عثمان، وقال له يا ابني إنهم أخطأوا ولم يقصدونك، وقد كلفني الحاج سعيد بنفسه كي آتي وآخذك إلى البيت. وأن الحاج سعيد لم يكن لديه علم، ووعدك بأنه سيحقق في الموضوع، وإذا أردت شيئًا قل، فالحاج مهتم كثيرًا بك.

نظر علي الدرويش إلى الشيخ عثمان وقال له: شكرًا.

كان علي الدرويش في حيرة، لا يعرف سبب القبض عليه، ولا سبب ضربه، ولا سبب هذا التغير المفاجئ الذي حوّل هؤلاء الذين كانوا وحوشًا كاسرة منذ قليل، إلى ملائكة يحاولون مساعدته في ترتيب نفسه وتسوية وضع ملابسه؛ بل أن أحدهم أتى بفوطة مبللة وأخذ يمسح على وجهه، محاولًا إزالة آثار الدماء والكدمات.

في السيارة حاول الشيخ عثمان أن يعرف الدعاء الذي دعا به علي عندما كانوا يضربونه، وحاول في إلحاح أن يعرف السر. ولكن علي أخبره بأنه لم يفعل شيئًا، ولم يدع بشيء، ولم يأت بأي جديد عما تعود قوله.

قال الشيخ عثمان:

- يا ابني أنت درويش حقيقي ومن رجال الله، وأريدك أن تكون معي وتسمع كلامي وستفتح كل الأبواب أمامك. اسمع يا ابني، أنا كنت صاحب والدك يرحمه الله، وإذا احتجت لشيء فأخبرني، أريدك أن تكون معي. أنت كنز، والكنز لا بد له من جني يكتشفه. اعتبرني أنا الجني، وضحك الشيخ عثمان، واستدرك: بالطبع جني مسلم ها ها ها .. ما رأيك يا بني؟

- ما رأيي في ماذا؟ قال علي الدرويش.

- فيما قلت لك... قال الشيخ عثمان؟

- تكون معي وتسمع كلامي؟

ضحك علي الدرويش، وقال:

- أنت تعرفني يا شيخ عثمان، لا أحتاج شيئًا، وعندما أحتاج لا أفكر لمن أتوجه؟ أتوجه بالسبحاني.

ضحك الشيخ عثمان وقال:

- أعرف ذلك، ولهذا أريدك أن تكون معي، ربما أنا الذي أحتاجك؟

ضحك علي، وقال:

- لا، لا يا شيخ، أنت لا تحتاجني. أنت كبير وعلاقاتك واسعة، وها أنت قد جئت لتأخذني إلى البيت. كيف تحتاجني؟ أنا بسيط وعلى حالي، ولا أريد شيئًا، ولا أستطيع أن أقدم شيئًا. حي.. كل في فلك يسبحون.

ومنذ ذلك التاريخ أصبح الناس يخشون نتيجة الإساءة إليه، لأنهم يحسبونه من أولياء الله الصالحين.

كان الشيخ عثمان أكثرهم محاولة للتقرب منه ودعوته لزيارته، بل طلب أن يأخذه إلى الحاج سعيد ويطلب منه ما يشاء، ولكن «علي الدرويش» كان يرفض الذهاب إلى أي شخص.

كان الشيخ عثمان رغم امتعاضه من تصرفات علي الدرويش إلا أنه كان يقنع المسؤولين الذين كانوا يرغبون وبإلحاح أن يزورهم علي الدرويش، بأن يتركوه في حاله، فهكذا رجال الله اطلب منهم الدعاء، ودعهم في حالهم، ولا تغضبهم.

اكتفى هؤلاء المسؤولون بنقل رسائلهم، ومنهم الحاج سعيد عن طريق الشيخ عثمان، الذي بدوره ينقلها إلى علي الدرويش كلما سنحت له الفرصة؛ وفتحت أبواب الخير للشيخ عثمان، فالعطايا التي يبعثها هؤلاء لعلي الدرويش أفادته كثيرًا ووسعت عليه.

رزق اعتبره الشيخ عثمان هبة من الله، جاءه عن طريق عبد من عباده الصالحين.

يأخذ الشيخ عثمان تلك العطايا بنفس راضية تمامًا، لأن «علي الدرويش» لا يقبل أخذ شيء من أحد، إلا من أناس خاصين جدًا لا يعرفهم أحد، ولو أن الجميع يعرف بأنه لا يرفض مساعدة صاحبه الباشمهندس.

(3)

اتكأ الباشمهندس في المربوعة ببيتهم القديم، وغطى نفسه ببطانية، فما يزال يشعر بقشعريرة تسري في جسمه، وما تزال الحيرة تتملكه لِما عاشه اليوم من تجربة غامضة؛ كان ينتظر صاحبه «علي الدرويش»، فهو الشخص الذي يحبه، وتربطهما صداقة لا شائبة فيها. قال لنفسه:

- لا بد أن «علي» هو أكثر الناس فهمًا لمثل هذه الحالة. اليوم سأصارحه ولا بد لصديقي أن يساعدني للخروج من محنتي.

دخل علي الدرويش مبتسمًا، وحيّا الباشمهندس، وجلس بجانبه.

- لا بد إنك تعرف لماذا طلبتك اليوم يا صاحبي؟
- وكيف لي أن أعرف يا صاحبي.. أجاب علي الدرويش؟

طلب الباشمهندس من ابنه أن يعد عالة الشاي، لكي يطهو لهم علي الشاي، وأن يذهب للبحث عن الشيخ عثمان ليأتي به.

كان الباشمهندس يريد أن يتحدث مع «علي» على انفراد.

جلس «علي» يعد الشاي، وهو يرمق الباشمهندس بين الحين والآخر بنظرة ود.

- قل لي يا صاحبي... قال الباشمهندس لـ «علي» متسائلًا:

- هل أنت صاحبي يا علي؟

نظر إليه علي الدرويش نظرة فيها بعض الملامة، وقام نحو الباشمهندس، وقبل رأسه وهو ينظر إليه في عتاب.

- معذرة يا صاحبي أنا في ورطة، وأنت الوحيد الذي تفهم هذه الأمور.

- أنا لم أتدخل يومًا في حياتك، ولم أسألك شيئًا، وأنت تعرفني، وعلاقتي بك يشهد الله إنها محبة صافية خالصة لله.

نظر إليه «علي» بنظرة موافقة.

- هل تعلم يا علي ماذا حصل لي؟

وقص الباشمهندس قصته على «علي»، وقال له ما رأيك الآن؟

- هل أنا إنسان طبيعي؟

ابتسم علي الدرويش، وقال له يا صاحبي أنت بخير، ولا تخشى شيئًا، لعله خير.

- ولكن يا صاحبي ماذا حصل؟.. هل لبسني جن؟

أومأ علي الدرويش برأسه بما معناه لا.

دخل الشيخ عثمان، وحيّا الباشمهندس وعلي الدرويش، وقال مخاطبًا الباشمهندس:

- أنت معك أعظم كنز.. مشيرًا إلى علي الدرويش، ولكنك كعادتك مسكر رأسك.

وجلس الشيخ عثمان بجانب الباشمهندس، واستمر في حديثه:

- الحياة هذه الأيام صعبة، ومتطلباتها كثيرة، والناس لبعضها.

واستمر موجها حديثه للباشمهندس:

- لقد أخبرتني زوجتي بأنكم تعدون العدة لعرس ابنتك، ربنا يكمل بالبركة إن شاء الله، وإنكم تفكرون في مصاريف العرس. يا باشمهندس؛ البارحة كنت عند صاحبك القديم المبروك، وخيرات ربي ما شاء الله عنده، وهو مسؤول كبير في الدولة، وقد أتينا على سيرتك. الرجل الحقيقة يشكرك، وقال إنكما كنتما صديقين أيام الثانوية، وهو يرغب في مساعدتك، ولكنك أنت منسحب ولا تريد أن تزوره حتى في المناسبات، مع أن الجميع يزورونه، وكل البلدة تزوره، بل يزورونه حتى من خارج البلدة.

- يا شيخ عثمان- قال الباشمهندس- الله يهديك! مشكلتي التي دعوتك من أجلها أكبر مما تقول.

انتفض الشيخ عثمان، وتحرك من مكانه، وقال لا تقل لي سياسية؟

- لا لا يا شيخ عثمان، اطمئن ليست من هذا النوع، إنها ربما أصعب؟

عاد الهدوء إلى الشيخ عثمان، وزاد حب الفضول لديه:

- ما هي؟

- بسيطة إن شاء الله.

وأردف قائلًا:

- كل المشاكل ممكن حلها إلا المشاكل الأمنية ربنا يحفظنا... وهنا رمق «علي الدرويش» بنظرة متذكرًا قصته مع الأمن.

- يا شيخ عثمان أعرف بأنك صاحب خبرة في هذا المجال، وأنت رجل صوفي، ودائمًا تحضر الحضاري، كما أن أهل الحي يستعينون بك عندما يتلبس الجن أحدًا منهم. بل لك صِلاتك بأهل الله، الذين لديهم من العلم ما لا نعلم.

استغرب الشيخ عثمان حديث الباشمهندس، وهو الذي يراه من أهل العقل، ويعتبر كثيرا من هذه الأشياء نوعا من الخرافة. وامتلأ رأسه بالأسئلة عن سر هذا التغير، وهذا الخطاب غير المتوقع من الباشمهندس.

وسأل الباشمهندس:

- إن شاء الله خيرًا؟

ليس شيئا أصاب الحاجة عندك، أو أصاب ابنتك ؟

- لا لا يا شيخ عثمان.

وقال بابتسامة فيها بعض الحزن:

- أنا يا شيخ.

أنا المصاب يا شيخ! ولا أدري ماذا حصل لي، وأريدك يا شيخ عثمان أن تساعدني؟

اعتدل الشيخ عثمان في جلسته، وقال بصوت فيه الجدية:

- يا باشمهندس نحن في خدمتك، فالله يعلم كم أحترمك، والحقيقة أن كل سكان الحي يحترمونك، ولا يعرفون عنك إلا كل الخير. ما هي مشكلتك؟

- بدأ الباشمهندس يروي ما حصل له بالتفصيل، والشيخ عثمان يتابع ما يقول باهتمام.

عندما روى الباشمهندس قصته، صمت الشيخ عثمان، وأصابه بعض الذهول، وقال للباشمهندس دعنا نخرج قليلا، فالشمس ما تزال مشرقة، وربما كان ما قصصته وهم، أو أن الله قد أزاله.

خرجا سويًا إلى الجنان، وأخذ الشيخ عثمان يتفحص الظل!

حقا فالشيخ عثمان ظله واضح، ولكن الباشمهندس ليس له ظل.

طلب منه أن يتحرك بطرق مختلفة، محركا يديه في اتجاهات عدة، وتيقن الشيخ عثمان بأن ما رواه الباشمهندس صحيحا.

عادا إلى الغرفة حيث كان علي منهمكا في إعداد الشاي، دون أن يبدو عليه انشغال بما يحصل.

وقال الشيخ عثمان، موجها نظره إلى علي الدرويش.

وما رأي صاحبك هذا في الموضوع؟

ابتسم علي الدرويش ولم يعلق، ولكن الباشمهندس قال للشيخ عثمان، صاحبي هذا غير منزعج من الحالة، ومطمئن أن الأمور تمام.

تناول الجميع طاسة الشاي الأخضر، وساد الغرفة بعض السكون؛ كل سارح بعيدا في تفكيره، الباشمهندس في كيف تنتهي المشكلة، والشيخ عثمان يفكر في لمن سيذهب ليستشيره في هذا الأمر، وعلي الدرويش يدندن:

مـولاي صل وسلم دائمًا أبدًا على حبيبك خير الخلق كلهم

مولاي صل وسلم دائما أبدا. على حبيبك خير الخلق كلهم

سمعه الشيخ عثمان، فشعر بانبساط، وطلب منه أن يرفع صوته ويستمر، وهو يقول الله، الله، ما شاء الله عليك يا علي الدرويش، والله إنك درويش.

الشيخ عثمان يطرب جدًا لسماع المدائح، ومن المعروفين بإجادة ضرب الدف، وبدا الشيخ عثمان يتمايل، وهو يردد مع علي:

مـولاى صلِ وسلم دائما أبدا على حبيبك خير الخلق كلهم

بدأ يسود الجو نوع من الراحة والتبسط، وذهب بعض التوتر الذي كان يعيشه الباشمهندس. بدأ الشيخ والباشمهندس يتجاذبان أطراف الحديث حول مختلف القضايا. وفجأة سأل الشيخ عثمان الباشمهندس:

- هل تعرف الصوفية يا باشمهندس؟
- هل تعرف السادة الأقطاب، وهل التقيت بأحدهم في حياتك؟

قال الباشمهندس:

- ماذا أقول لك يا شيخ عثمان؟
- أنت تعرف بأننا في الحي كنا نحضر الحضرة، وأعرف سيدي علي جندب، عندما كنت صغيرًا كان أبي صاحبه، ويأخذني إليه؛ وأعرف الحسلوك، وقد كان يسيل الدم من يده، وهو يشير إليها بيده الأخرى. وأعرف الشيخ موسى، الذي كان يضع أثناء الحضرة منجلا ساخنا في فمه، ويجذب! وأتذكر عمي موسى القطاطسي الذي كان أثناء الحضرة يتسلق النخلة بسرعة، ويتمرغ بين جريدها وأشواكها، ثم ينزل ولا يصيبه جرح منها. أتذكر كل تلك الأشياء، وكنا نحضرها.

- وأتذكرك يا شيخ عثمان، عندما كنت تشيش، وأنت تضرب الدف حتى يكاد الدف أن يطير من بين يديك.

ابتسم الشيخ عثمان، وقال له:

- حقا كنا دائما نقيم الحضرة، أما الآن فليس مثل زمان، ولكن قل لي:

- ألم يعلمك صاحبك شيئا من الأسرار ؟

- أعني صاحبك على الدرويش؛ إنه صاحب أسرار؟

نظر إليه علي الدرويش بنظرة مستغربة، ولم يعلق على حديث الشيخ عثمان.

- صاحبي علي صحبة قديمة أنت تعرفها يا شيخ عثمان، وأنا لا أسأل صاحبي عما يعرفه من أسرار.

- ولكن يبدو أن لديك معرفة بأحوال الصوفية. من علمك ذلك ؟

ابتسم الباشمهندس، وتمتم في نفسه:

- آه لو تعلم يا شيخ من علمني ذلك؟

وابتسم الباشمهندس للشيخ عثمان وقال له:

- علمنيه ربي، أرض الله واسعة يا شيخ، وليست حدودها بلدتنا.

- مَن مِن أهل الصوفية تعرفهم؟

- آه قال الباشمهندس. أعرف أبو حامد الغزالي، وأعرف الحلاج، وأعرف البسطامي، وأعرف مولانا جلال الدين الرومي، وأعرف ابن عربي، وأعرف ذو النون المصري، وأعرف كثيرا من أقطاب الصوفية، وقد قرأت عنهم ولهم.

تفاجأ الشيخ عثمان بما يقوله الباشمهندس، وبإلمامه بشؤون الصوفية بهذا العمق، وهو الذي يعتقد بأن الباشمهندس الذى قضى فترة من حياته في أوربا لا يمكن أن يهتم بأمر الصوفية كل هذا الاهتمام، كما أنه قليلا ما يتردد على الحضاري التي تقام في البلدة.

اعتدل الشيخ عثمان في جلسته، وبدا عليه علامات الانبهار:

- هؤلاء جميعهم تعرفهم يا باشمهندس .. منذ متى .. ومن كان شيخك؟

والتفت جهة علي الدرويش مواصلا حديثه، هم هكذا أولياء الله يستقون العلم اللدني ولا أحد يعرفهم.

واستطرد الشيخ عثمان في حديثه:

- اذا لا بد إنك تعرف كراماتهم.. أليس كذلك؟

هؤلاء الذين تحدث عنهم هم من الوزن الثقيل؟

كان علي الدرويش منهمكا في عمل الشاي، وينظر من تحت بشيء من الغبطة للمفاجأة التي فجرها الباشمهندس بحديثه عن هؤلاء الأقطاب.

- هل يمكن أن تحدثني عن بعض كرامات أصحابك هؤلاء الذين لم أكن أعرف إنهم أصحابك؟

جلس الباشمهندس، وقد انسجم في الحديث، وراق له أن يمزح مع الشيخ عثمان؛ فقال له:

- يا شيخ عثمان.. خذ الحلاج مثلا كان يأتي بالفاكهة في غير وقتها، وكان يمد يده في الهواء ويرجعها مليئة بالدراهم، وله الكثير من الكرامات.

استهوت الشيخ عثمان كرامة الدراهم، فقال له الباشمهندس:

- هل تريدني أن أريك كيف يخرج الدراهم؟

نظر اليه الشيخ عثمان، وقال له:

- ليتك تفعل.

أخذ الباشمهندس ورقة عشرة دينارات من جيبه، وأخفاها تحت قميصه وراء رقبته، وظل يعمل حركات بيديه ويتمتم، وبينما كان يشغل الشيخ عثمان بيده اليسرى، مد يده اليمنى وراء رقبته وفجأة رمى ورقة العشر دينارات.

التقطها الشيخ عثمان فرحا، وقال له هذه ورقة البركة سأحتفظ بها ووضعها في جيبه.

خشي الباشمهندس أن يكون الشيخ عثمان قد صدق فعلا القصة، فظل يشرح له بأنها مزحة، وأراه كيف عمل الخدعة. ولكن الشيخ عثمان ظل على ظنه بأن الباشمهندس لا يخلو من سر؟

حتى يثبت الباشمهندس للشيخ عثمان بأن الموضوع مزحة، قال له:

- انظر الآن سأعيد ما فعلت دون أن أضع العشر دينارات وراء رقبتي، وسوف لن تخرج عشر دينارات هذه المرة.

أعاد الباشمهندس نفس الحركات، ومد يده وراء رقبته ودفعها أمامه؛ ولصدمة الباشمهندس هذه المرة سقطت عشر دينارات !

- أخذها الشيخ عثمان، وقد ارتسمت على محياه ابتسامة عريضة وبهت الباشمهندس، ولم يعرف ماذا يقول!

أخذ الباشمهندس يحدث نفسه:

- لا.. لا ليس معقولا.

لابد إنه أخطا المرة الأولى، وبدلا من أن يضع ورقة عشر دينارات واحدة وضع ورقتين بالخطأ.

- لابد أن شيئا من هذا قد حصل.

أما الشيخ عثمان فقد استأذن وخرج من البيت، ووعد الباشمهندس بأنه سيعود إليه صباح اليوم التالي.

(4)

دخل ابن الباشمهندس حاملا معه العشاء لوالده ولعلي الدرويش، وقد طلب منه والده أن يعلم البيت بأنه سينام هذه الليلة في بيت جده بالجنان مع علي الدرويش، ونظر اتجاه علي الدرويش الذي أشار له بالموافقة.

لم يكن الباشمهندس يرغب في العودة إلى البيت هذه الليلة، ويفضل قضاءها مع صاحبه علي الدرويش، الذي يشعر بكثير من الاطمئنان معه، ويريده أن يكون موجودا قربه، فبعد ما حصل نهار اليوم لا يدري ماذا يمكن أن يحصل بالليل، ولا يريد أن يكون لوحده؟

اتكأ الباشمهندس على مجموعة من الوسائد حوله، وتوجه إلى صاحبه علي الدرويش المنهمك في إعداد جولة أخرى من الشاي، وقال له مازحا:

- ما قولك يا علي فيما قاله الشيخ عثمان؟
- الشيخ عثمان .. ماذا قال؟
- قال أشياء كثيرة، وانا لا أسمع كل شيء؟

قال علي الدرويش ذلك بابتسامة معبرة مع تقطيبة من حاجبيه.

- آه يا علي .. نحن أصحاب، ونعرف بعضنا البعض، لا أدري منذ متى، ولكن أعتقد منذ ولدنا .. أليس كذلك؟

- صحيح قال علي مبتسما.

- ما رأيك في قوله بأنك أنت الذي علمتني الصوفية وأحوالها؟

ضحك علي الدرويش، وأشار بيده إلى قلبه قائلا:

- المعرفة هنا يا صاحبي.

ابتسم الباشمهندس، وأراد أن يخترق حاجز الصمت لدى صاحبه علي الدرويش، قائلا:

- نعم يا علي المعرفة في القلب، ولكن لا بد من وجود مرشد يدلك على الطريق.. أليس كذلك؟

ابتسم علي الدرويش ابتسامة فيها شيء من الغموض.

- لم تجبني يا علي من الذي فتح لي طريق الصوفية في رأيك؟

.. أنت صديقي الذي تصاحبني دائمًا طوال وجودي في ليبيا، فلابد إنك تعرف؟

ابتسم علي الدرويش، وقال ليس بالضرورة في ليبيا!

وبدأ ينشد بصوت شجي وعميق:

عرفت الهوى مذ عرفت هواك وأغلقت قلبي عمن سواك

وقمت أناجيك يـا مـن ترى خفايا القلوب ولسنا نراك

أحـبـك حبين، حـب الهوى وحـبـا لأنـك أهـل لـذاك

كان علي الدرويش ينشد بصوت رخيم، ويتمايل برأسه تمايلا خفيفا، مغمض العينين يسبح في ملكوت الله بعيدا.

قال الباشمهندس:

- هذا أنت يا علي فعلا انسان ليس من السهل سبر أغوارك، ولا جرك للكلام.

دائما كعادتك عند السؤال، تبحر بعيدا في كلمات ترفعك إلى مستويات عليا؛ لا أعرف إن كان في إنشادك الإجابة، أم هي الدعوة للسكوت؟

هام الباشمهندس في بحار علي الدرويش وإنشاده، وسافر بعيدا إلى بلاد بعيدة، وزمن بعيد مضى.

هناك في مدينة ميونيخ، وكان الجو باردا، وفي منتصف شهر مارس تحديدا منذ أكثر من ثلاثين سنة مضت ... في مكتبة المدينة، وتحديدا في المقهى التابع للمكتبة، حيث كان مكانا مفضلا لديه للذهاب والجلوس يتصفح بعض الصحف، وهو يتناول قهوته.

هناك كان جالسًا، وجاءت هي جلست عند الطاولة المقابلة له، كان شعرها يميل قليلًا إلى الحمرة، مرتدية ملابس فضفاضة نوعا

ما، وكنزة صوفية واضح إنها صناعة يدوية، وتلف حول رقبتها شالا فلسطينيا ذا مربعات سوداء وبيضاء؛ وضعت كتابها على الطاولة، وأخرجت علبة السجائر، وأشعلت واحدة وهي ترفع رأسها في نفضة، وانتبهت إليه ينظر إليها، فابتسمت ابتسامة وادعة.

أخذه سحرها، وتجرأ بأن قام من كرسيه، وذهب إليها وسألها إن كان بالإمكان مصاحبتها في الجلسة؟

نظرت إليه لبضع ثوان أحسها كأنها الدهر كله، ثم قالت له بابتسامة رقيقة:

- تفضل.

جلس إلى جانبها، وقدم لها نفسه:

- سالم طالب بالجامعة أدرس الهندسة، من ليبيا.

قالت له:

- أهلًا أنا جوليا، طالبة بالجامعة أدرس بقسم الدراسات الشرقية ومقارنة الأديان.

جلس بجانبها، وأخذا يتبادلان الحديث، وبسرعة اكتشفا إنهما منجذبان لبعضهما البعض، وأن هناك اهتمامات مشتركة بينهما.

اتفقا على أن يلتقيا في عطلة نهاية الإسبوع، وقد وافقت على دعوته لتناول العشاء سويا بأحد مطاعم المدينة ليلة السبت.

عاد إلى شقته تلك الليلة مفعم بروحها الجذابة، ونفسها المرحة، وغموضها الذي يحمل نفحات شرقية، أعادته لتذكر بلدته، وذكرياته حين كان يحضر الحضرة بسيدى الأندلسي، وكيف كان يحاول ضرب البازة، ويتمايل مع ضرباتها، وهو يردد مع حلقة الذكر الله .. الله، مع كل ضربة يلقيها بقطعة الجلد التي بيده على البازة.

مرت الأيام الثلاثة، وجاء يوم السبت فرتب نفسه لمقابلتها، وذهب قبل الموعد كي يتجنب أي تأخير قد يحصل في المواصلات العامة، وظل ينتظرها في المكان المتفق عليه.

وصلت جوليا في الموعد، ومن حرارة اللقاء البادية من كليهما، كان واضحا أن كلاهما كان ينتظر بشوق لهذا اللقاء.

- أين نذهب .. سألها؟
- أى المطاعم تفضلين؟

قالت أنت تختار المطعم .. دعنا نجرب ذوقك؟

قال لها ما رأيك فى مطعم مكسيم؟

- جيد إنه يعجبني أيضا، وأذهب إليه أحيانا.

قطعا الشارع، وذهبا إلى الجهة المقابلة في زاوية الشارع، حيث مطعم مكسيم، في مبنى يبدو عليه النمط القديم، وانتظرا قليلا في الطابور.

نزلا عبر الدرج الرخامي إلى المطعم، فهو يقع تحت الأرض ودخلا إلى صالة المطعم؛ كانت جدران المطعم مكسوة بالقرميد الأحمر على هيئة أقواس قديمة وسميكة، تعطيه لمسة كلاسكية رومانسية.

وكانت الطاولات مصنوعة من الخشب الطبيعى السميك، وعلى كل طاولة شمعة مضيئة.

اختارا مكانا في أحد أركان المطعم، وجلسا ينظران حولهما، وبدأ الحديث عن جو المطعم الرومانسي، وكم عمره يا ترى، وكم من العاشقين مروا من هنا؟

جاء النادل يسألهما طلبهما، وبعد اختيار الطعام، سألهما ماذا سيشربان؟

قال لها ماذا تفضلين؟

قالت النبيد الأحمر؟

قال لها اختاري لنا النوع الذي تفضلين، لقد كان دوري اختيار المطعم، وجاء دورك لاختيار النبيذ.

نظرت في قائمة المشروبات، وأشارت إلى نوع من النبيذ الفرنسي، وأردفت قائلة:

- النبيذ الفرنسي لا يعلى عليه.

جاء النادل بقنينة النبيذ، وبعد أن فتحها أمامهما، سأل بمن يبدأ ليتذوق النبيذ؟

أشار إليه الباشمهندس بأن يبدأ بها.

سكب النادل قليلًا من النبيذ في كأسها منتظراً ... فرفعت الكأس قرب أنفها، وأخذت تشم، ثم أخذت رشفة من الكأس، وحركت رأسها علامة الرضا.

قالت شيئان أحب أن اشم رائحتهما قبل تناولهما؛ القهوة والنبيذ، ما رأيك في النبيذ، استطردت؟

قال لها:

- ممتاز إنه فعلًا رائع؛ الحقيقة أنا لا أشرب كثيرا، ولكنني أفضل النبيذ، فهو على أية حال أقدم صناعة عرفها التاريخ، وما تزال مستمرة.

- يبدو إنك تحب الأشياء الأصلية؟

- طبعًا.. ولهذا أحببت الجلوس معك عندما رأيتك في المقهى ذاك اليوم.

- هل تعني إن ستايلى قديم، ونظرت إليه بابتسامة؟

- لا .. لا بالعكس، رأيت فيك الجمال الحقيقي المتأصل، وليس جمالا سطحيا يصنعه المكياج.

- آه.. قالت له .. أنت خطير .. بدأت في الغزل؟

قرأت بأن الشرقيين شاطرون في الغزل، وإبداء العاطفة حتى في الشعر الصوفي الذي اطلعت على بعض منه، وجدته راق جدا في التعبير عن المشاعر الانسانية.

قضيا حوالي ثلاث ساعات وهما بالمطعم، لم يشعرا بمرور الوقت؛ خرجا سويا، وأخذا سيارة أجرة إلى بيتها، حيث قررا بأن يكملا سهرتهما ليكملا حديثهما الذي شعر كل منهما بأنه لن يكمل أبدا.

مرت الأيام وأصبحا صديقين يعيشان سويا يتشاركان في الحياة، ومضت سنتين والحياة مرتبة لا تشوبها إلا بعض المنغصات البسيطة والمعتادة بين الشريكين؛ بالنسبة له حياته معها غيرت كثيرا في حياته، فقد أصبحت أكثر انتظاما، وأكثر انضباطا.

لأول مرة بدا يستعمل المفكرة السنوية، ويسجل مواعيده المختلفة ليس باليوم فحسب، بل حتى بالساعة؛ هذا موعد لقاء مع صديق.. هذه مواعيد الامتحانات، هذا موعد الرياضة والهرولة بالغابة القريبة منهم هو وصاحبته، هذا موعد لعب البادمنتون هو وصاحبته .. هذا موعد لقائه ببعض أصدقائه في أحد مقاهي المدينة. هذا موعد الذهاب إلى المسرح أو السينما مع صديقته .. وهذا وهذا .. جدول منتظم وحياة جديدة منتظمة تعلمها من العيش معها.

لا توجد أبواب مفتوحة كما تعود في السابق يتصرف وفقا للحالة وللموقف. أصبحت الأمور واضحة ومنظمة، صحيح كانت صعبة عليه في البداية، ولكنه مع مرور الوقت ارتاح لهذا النمط من الحياة، فقد جعله يستفيد من وقته بشكل فيه الكثير من الكفاءة والفاعلية. بل ساعده هذا التنظيم حتى على تحقيق نتائج جيدة في دراسته عامين مرا على أحسن حال حتى كان ذلك اليوم.

الشيء الوحيد المتأكد منه أن دعوات والديه، خاصة أمه وانتظارها أن يعود إليها لتراه صاحب بيت، وترى أحفادها منه يلعبون حولها دوراً في تحريك ذلك القدر، وتغير مساره!

يوم ويا له من يوم، ما يزال كلما تذكره يشعر بألم، ولو أنه سعيد بما تم بعده!

***

أفاق من رحلته على صوت علي الدرويش، وهو يقدم إليه كوب الشاي وابتسامة عريضة على محياه.

- أين كنت يا صاحبي؟
- في مكان بعيد؟
- هل رأيت كيف أن الإنسان يمكن أن يعيش أحوالا غير الأحوال التي يعيشها في الظاهر؟

- هل فهمت بأن الكون الواسع يمكن للإنسان أن يسبح فيه إلى لا منتهى؟

- هل عرفت بأن الروح لو تخلت عما يقيدها، يمكن أن تتجاوز الحجب، وأن تسرح في ملكوت الله الواسع، وترى من الأشياء ما لا تراه العين الحسية؟

- هل رأيت أن المعرفة المادية التي نعيشها، تقابلها معرفة أخرى ذات قوانين مختلفة؟

- رحلتك يا صاحبي مرسومة، وسألتني من الذي فتح لك الطريق؟

- إنه قلبك!

تفاجأ الباشمهندس بحديث علي الدرويش، فلأول مرة يسمعه يتحدث بهذا الوضوح عن عالم يعيشه، ويصفه بلغة قرأها الباشمهندس، ولكن لم يستوعبها كما يستوعبها الآن، وهو يسمعها من صاحبه علي الدرويش.

- الله .. الله يا صاحبي، كنت أحس بإنك شخص غير عادي، وإنك تحمل من الحكمة أكثر مما يستوعبون.

- لا تتركنى يا صاحبي قالها الباشمهندس، وهو ينظر إلى عيني صاحبه.

- لن أتركك فأنت صاحبي، أجاب علي الدرويش بلهجة حاسمة.

(5)

كان الباشمهندس وعلي الدرويش قد خرجا بعد إفطارهما يتمشيان في الجنان، وكان الباشمهندس يراقب ظله غير الموجود؟

سأل صاحبه علي الدرويش:

- هل رأيت يا علي كيف أن ظلك واضح في حين إنه ليس لي ظل؟

ابتسم علي الدرويش، وقال قلت لك يا صاحبي لا تشغل بالك.

- دع هذه الأمور لمدبر الأمر، الله يعلم كم ستستمر معك؟
- ربما هي إشارة عندما تفهم الرسالة تختفي؟
- حقا؟ .. قال الباشمهندس.
- هل ستختفي هذه الظاهرة؟
- نعم ربما عندما تنتهي رسالتها؟
- من يدري؟
- المهم أنت بخير.. قال علي الدرويش.

شعر الباشمهندس بارتياح لسماعه بأن هذه الظاهرة كما يسميها ستختفي.

وأردف قائلا لصاحبه علي الدرويش، ادع لي يا صاحبي أن تختفي قريبا.

ابتسم علي الدرويش، وقال له إن ربك يسمعك يا صاحبي.

مرا بشجرة التوت قرب البئر، وقال الباشمهندس:

- هل تذكر يا علي زمان عندما كنا نأتي هنا، تقف أنت طويلا تستمع لتغريد العصافير، وكنا عندما نقول لك تعال تقول لنا أريد أن أستمع إلى ما تقول هذه العصافير؟

كنا نضحك، في حين أنت كنت تصر على البقاء فترة طويلة تستمع إليها، وقد كنت لا تسمح لأحد منا أن يصطادها؟

بعد هذا العمر الطويل فهمت قولك، فقد رأيت بعيني ذلك العصفور يتحدث إلي ... صحيح لم أفهم ماذا كان يقول، ولكن انتابني إحساس عميق داخلي بأنه حقا كان يتحدث إلي، أحسست بشيء في قلبي يتجاوب معه حينها.

- ماذا عساه كان يقول يا علي؟
- هل لو سمعته أنت كنت فهمت ماذا قال؟
- الصمت يا صديقي لغة، والتغريد أيضا لغة، والموسيقى هي أيضا لغة.

واستمر علي الدرويش في حديثه:

- هل تستطيع أن تقول لي بأنك تفهم الموسيقا؟

عندما تسمع لدقات الدف تضرب إيقاعات تتصاعد وتهبط في تراتبية معينة، ويتحرك مع دقات الدف قلبك وكل جوارحك، وتشعر بالنشوة، هل يمكن أن تفسر ذلك؟

إنها أيضا لغة يفهمها الجسد، ولذلك يتحرك في حركات تتجاوب مع ذلك الإيقاع.

إنه تواصل يا صاحبي، وما هي اللغة؟ إنها أداة اخترعناها للتواصل وايصال ما نريد للآخر، هذه هي اللغة .. ولذلك حتى الإشارة لغة.

بل الحركة يا صاحبي هي اللغة الأولى، وهي الأصلية، وهي التي تشترك فيها الإنسانية كلها.

- هل فهمت لماذا الصوفيون عندما يبلغون حالة الوجد يستعملون كثيرا حركة الجسد في التعبير؟

- إنهم يتجاوزون الظاهر، ويتجاوزون العادة، ويطلقون العنان للجسد كي يعبر عما يحس به.

- ألا ترى بأنه سيأتي يوما تشهد فيه علينا أيدينا، وأرجلنا، وألسنتنا، وكل عضو من جسمنا، فكيف يكون ذلك إن لم تكن كل هذه الأعضاء تختزن داخلها ما تريد أن تعبر عنه؟

- اللغات متعددة يا صاحبي، وسيأتيك يوم تبحر في هذا العالم المليء بالأصوات التي نسمعها، والتي لا نسمعها.

ولكن ربما البعض منا فقط يدركها؟

لاحظ الباشمهندس بأن صاحبه علي قد تغير في معاملته، ولم يعد يتعامل معه بالغموض الذي ألفه فيه سابقًا، لقد أصبح أكثر أريحية ويتحدث بلغة لم يسمعها منه قبلًا، بل لم يسمعها أحد من قبل من علي الدرويش. إنه فعلًا كنز مليء بالأسرار.. قال في نفسه.

فعلًا الشيخ عثمان له خبرة في هذه المواضيع، فهو دائمًا يقول بأن علي الدرويش أنتم لا تعرفونه، وكان الشيخ عثمان من أكثر الناس اهتمامًا لما يقول علي الدرويش، وكان دائمًا يحاول أن يستشف منه بعض الأشياء حتى تلك المتعلقة بالمستقبل؟

- يا صاحبي لست أدري ماذا أقول لك؟

قال الباشمهندس وهو متردد فيما سيقول.

يا صاحبي أريد أن أعلمك بأنني لست صوفيًا كما يتصور الشيخ عثمان، أو قد تظن أنت.

أريد أن أعترف لك بأنني قد عملت أشياء كثيرة ترونها سيئة، وعشت حياتي بالطول والعرض، وبصراحة كنت من المحبين للحياة والاستمتاع بها.

- هل تعرف معنى ذلك؟

ابتسم علي الدرويش وقال لصاحبه وماذا أكثر؟

- ماذا تقصد سأل الباشمهندس؟

- أقول لك إنني اقرؤك بقلبي... أجاب علي الدرويش.

- الصراحة يا صاحبي، إن من قدمني للصوفية، وشجعني على القراءة حولها، هي جوليا، وهي أساسًا غير مسلمة!

- إنها شيطانة إنسية!

- الحقيقة يا علي كانت صاحبتيي في ألمانيا، وكانت تدرس هذه المواضيع في الجامعة.

ضحك علي الدرويش:

- ماذا قالت جوليا؟

- أنا لا أعرف هذا الاسم، وأخذ يضحك ويهز رأسه.

- أنا أعرف إنك يا صاحبي انسان، والإنسان غير الملائكة الذين خلقهم الرحمن، يعبدونه ولا يعصون له أمرًا.. عقب علي الدرويش.

- ولكن أنت يا صاحبي.. قال الباشمهندس.

ولكن علي الدرويش قطع عليه حديثه، فقد بدأ ينشد لسيدي عبد السلام الأسمر.

- الله الله .. يا واحد مالك تاني
- الله الله .. يا حي يا قيوم
- الله الله .. يا دايم يا رحماني
- الله الله .. يا عز للمظلوم
- الله الله .. والمصطفى العدناني
- الله الله .. طه النبي المعصوم
- الله الله .. ثبت مقال لساني
- الله الله .. بالصدق نزيد علوم

فهم الباشمهندس إنه يجب أن يقف هنا، فهكذا هو علي الدرويش، والباشمهندس يعرف جيدًا حدوده، خاصة مع صاحبه علي الدرويش؛ ربما هذه إحدى الميزات التي ربطتهما سنين طويلة، فطوال هذه المدة كان كل منهما يفهم الآخر بقليل من الكلام، وبكثير من المشاعر الصادقة، التي ترتقي فوق لغة الكلام .

عادا إلى المربوعة، وكان ابن الباشمهندس قد جاء وقال لوالده: لقد التقيت الشيخ عثمان، وهو يبعث إليك السلام، وقال لك جهز لنا الغداء، فهو قادم مع خمسة آخرين من أصحابه.

الشيخ عثمان كان مشغولًا بالحالة التي عليها الباشمهندس من اختفاء ظله، وقال فى نفسه لا بد أن لعلي الدرويش علاقة بالموضوع،

فهو يعرف الكثير من العلم وله كرامات، ولكنهم هكذا أولياء الله لا يظهرون ما لديهم من كرامات ومن قبول عند الله. لماذا اختار علي الدرويش صاحبه الباشمهندس؟ هذا أمر لا يعلمه إلا الله، فهما صديقان منذ الصغر وتربطهما علاقة خاصة. لا بد أن الباشمهندس لا يخلو من بركة، ولا بد أن علي الدرويش كان طوال هذه المدة يهيئه لشيئ ما. الأبدال هم كذلك وربما علي الدرويش هو أحدهم.

الأبدال هم أعلى المراتب فى الصوفية، وأكثر الناس ورعًا وتقوى، غير معروفين لدى عامة الناس، ولكن مرتبتهم عالية جدًا ويستجيب الله لدعائهم وتوسلاتهم، وهم موجودين يحافظون على النظام العام للكون ويتدخلون فى بعض الأحيان لإنقاذ الناس من الخطر، ولتسيير الأمور، ولحل المشكلات الكبرى، وذلك بدعائهم المستجاب عند الله. يختلفون فى عددهم من قول إنهم 7، ومن قائل إنهم أربعون، والبعض يقول بأنهم 300، وهم ثابتون فى عددهم وإذا غاب أحدهم يخلفه آخر فى شكل هيئته.

يذكر الشيخ عثمان بأنه ذات يوم أخبره أحد المشائخ بأنه التقى بأحد الأبدال صدفة فى سوق الحوت بطرابلس، وقد قال له البدل بأنهم يجتمعون ويتداولون شئون البلاد، وأن الأمور فى البلاد ستكون صعبة جدًا فى مرحلة ما، ولكنها بعد ذلك ستتحسن

وستعيشون فى أحسن حال. قال الشيخ أن البدل الذى التقاه طمأنه وقال له ستكونون فى خير حال وعليكم بالصبر، وأكد له بأن الأمور ليست متروكة كما تتصورونها!

تصادف أن التقى الشيخ عثمان باالدكتور محمد أستاذ الفيزياء بجامعة طرابلس فسأله:

- يا دكتور بالله أنت رجل العلم أريد أن اسألك عن الظل كيف يتكون؟

استغرب د. محمد من سؤال الشيخ عثمان، وحاول أن يبسط له الأمر فقال له:

- يا شيخ عثمان الضوء يسير فى خطوط مستقيمة، وعندما يصطدم بجسم غير شفاف فإنه يلقى بظل هذا الجسم على الجهة المقابلة للضوء فتكون مظلمة، وهو ما نقول عنه الظل.

قال الشيخ عثمان:

- وما تفسيرك لحالة إنسان واقف في الشمس وكل الأجسام حوله لها ظل، ولكن هو ليس له ظل؟

أجاب الدكتور:

- من غير المعقول إلا إذا كان هذا الشخص شفافًا، وهذا غير ممكن! فهذه قوانين الطبيعة وقوانين الضوء يا شيخ عثمان؟

- قوانين الطبيعة؟ وما قولك فيمن يمشي على الماء إذًا؟

- يمشى على الماء يا شيخ عثمان؟ ومن هذا الذي يمشي على الماء؟ سأل د. محمد فى استغراب.

- أولياء الله الصالحين يا دكتور! ألا تعرف قصة الولية الصالحة ميمونة؟.. ميمونة لا تعرف القراءة والكتابة، وكانت دائمة الصلاة ولا تعرف سور القرآن فكانت دائمًا تردد ربي يعرف ميمونة وميمونة تعرف ربي. مرّ بها شيخ وهي تصلي على الشاطئ فسمعها وأراد أن يعلمها، فقال لها لا بد أن تقرأي شيئًا من القرآن في الصلاة وعلمها الفاتحة. بعد ذلك أخد قاربه ودخل البحر، وعندما بدأت ميمونة الصلاة نسيت الفاتحة فانطلقت تجري على سطح الماء حتى وصلت إلى الشيخ فى قاربه بوسط البحر، وسألته قائلة: سامحني يا شيخ نسيت ماذا أقول عندما أصلي؟ نظر إليها الشيخ متعجبًا وقال لها:

- أنتِ لا تحتاجين إليّ ربي يعرف ميمونة، وميمونة تعرف ربي! أولياء الله يا دكتور لهم كرامات تتجاوز العلم!

قال الدكتور محمد:

- والله يا شيخ عثمان أنا ألعب على أرضي! وأعرف فقط ما تعلمته في الكتب وما أثبتته التجارب العلمية. أما الأمور التى تتحدث عنها فلا أعرف عنها شيئًا.

- ليس هناك مشكلة يا دكتور... هناك عِلم وهناك عِلم. أفهم قصدك ولكن تأكد بأنه ليس كل شيئ موجود بالكتب. وهناك عِلم دنيوي وهناك عِلم رباني. هناك أشياء ندركها بحواسنا وتخضع للقوانين كما تقول، ولكن أيضًا هناك قوانين أخرى لا تخضع لقوانين الطبيعة.

***

اتصل الشيخ عثمان ببعض أصحابه من شيوخ الطرق الصوفية وشرح لهم الوضع وتبادل معهم الرأي وقد قرروا زيارة الباشمهندس للوقوف بأنفسهم على الحالة التي هو عليها.

لم يمض وقت طويل على عودة شيخ الظل وصاحبه علي الدرويش للمربوعة، حتى جاء الشيخ عثمان ومعه خمسة من الشيوخ، ودخلوا مربوعة الباشمهندس، وقدمهم الشيخ عثمان قائلًا:

- الشيخ سالم شيخ الزاوية العيساوية، والشيخ حميدة شيخ الزاوية العروسية، والشيخ عبد الله هو أيضًا من شيوخ الزاوية العيساوية، والشيخ منصور شيخ الزاوية البرهانية، وهذا كبير المشايخ... قالها الشيخ عثمان مبتسمًا: الشيخ ابراهيم جاء خصيصًا من زليطن، وعندما حدثته بموضوعك أصرّ على المجيء وزيارتك.

توجه الشيخ عثمان إلى الشيوخ الضيوف مقدمًا إليهم الباشمهندس، وهذا يا سادتي شيخ الظل الذي حدثتكم عنه، وصاحبه علي الدرويش الذي تعرفونه جميعًا.

رحب الباشمهندس بالضيوف، وعبَّر عن سعادته بقدومهم، وشكر الشيخ عثمان، وقال لهم هذا شيخنا، وبارك الله فيه دائمًا يقوم بالواجب تجاه سكان الحي، ولا يقصر أبدًا في خدمة ناسه، ندعوا الله أن يعطيه الصحة وطول العمر.

شعر الشيخ عثمان بارتياح كبير وهو يستمع إلى الباشمهندس يتحدث عنه بهذا التقدير، ثم بدأ يدير الحديث قائلًا:

– يا سادتي المشائخ؛ لقد حكيت لكم قصة شيخ الظل بتفاصيلها، وأترك لكم سؤاله والاستفسار منه عمّا تريدون الاستفسار عنه؛ أريد فقط أن أقول لكم بأن الباشمهندس من خيرة سكان الحي ويحظى باحترام الجميع، كما أنه رجل متعلم ومهندس قدير درس في أوروبا وعاد إلى بلاده وأهله، ولم يفضل العيش هناك.

بدأ الشيوخ يطرحون الأسئلة على شيخ الظل:

– من كان معه أثناء حدوث القصة؟

– هل لاحظ بأنه داس شيئًا عندما كان يمشي في الجنان، حتى لو كان حشرة صغيرة؟

– هل جاءه حلم قبل هذه الحادثة، وماذا كان هذا الحلم؟

– هل العصفور الذي كان يحدثه، كان ينظر إليه فقط، أم كان يلتفت أثناء تغريده؟

- وماذا عن القط؛ كيف كان حجمه؟
- هل شعر بالخوف عندما كان ينظر إليه؟
- هل أصدر صوتًا؛ وما هو الصوت الذي أصدره؟
- هل كان مثل أصوات القطط؛ أم يختلف؟

أسئلة كثيرة كان يطرحها الشيوخ، وشيخ الظل كان يجيبهم عليها.

بعدها قام كبيرهم الشيخ إبراهيم واقترب من الباشمهندس ووضع يده على رأسه، وأخذ يقرأ آيات من القرآن، تلاها بأدعية كثيرة لم يفهمها المهندس؛ فقد كان صوته خافتًا ولم تكن من الأدعية التي يألفها حتى يستطيع متابعتها وتمييزها.

ظل الشيخ إبراهيم فترة يحرك يده فوق رأس شيخ الظل، ويمسح على وجهه، بعد أن نفث قليلًا على كفه، وقد أعاد ذلك عدة مرات؛ وعندما أكمل رقيته، سأل الباشمهندس:

- إن كان قد أحس بشيء؟
- هل شعر بارتفاع درجة حرارته؟
- هل شعر برعشة تسري في جسده؟
- هل جاءته أفكار غريبة في رأسه؟

ولكن الباشمهندس كما يبدو كان عاديًا، ولم يشعر بأي تغير في حالته.

كان الشيوخ جميعهم ينتظرون ماذا سيقول الشيخ ابراهيم؟

عندما أكمل الشيخ إبراهيم، رفع حاجبيه مقطبًا ومعبرًا بحركة من فمه عن استغرابه، سأله الشيخ عثمان:

- قل لنا يا شيخ إبراهيم ماذا وجدت؟ هل الباشمهندس ملبوس؟

قال الشيخ إبراهيم:

- لا.. لا؛ لم يلبسه جن، وحاله الله أعلم، ربما إشارة من الإشارت كما يبدو لحكمة، وهذه أمور لا يفهمها إلا بعض السادة الدراويش، ونظر تجاه علي الدرويش لعله يسعفه بتعليق.

لم يقل علي الدرويش شيئًا واستمر في إعداد الشاي وسكبه في الكؤوس، وبدأ في تقديمه للشيوخ الضيوف.

بعد أن شربوا الشاي، اقترح الشيخ عثمان أن يخرجوا قليلًا إلى الجنان ويقفوا في الشمس ليعاينوا بأنفسهم الوضع.

خرجوا وظلوا يلاحظون حقًا كيف أن الجميع لهم ظل ما عدا الباشمهندس فلا ظل له. وقد حاول شيخ الظل أن يكون ودودًا معهم، مع إنه أصبح يتضايق من هذا المشهد، وهذا العرض الذي أصبح ملزمًا بتقديمه.

دخل الجميع إلى المربوعة وأخذوا يتجاذبون الحديث، حيث بدأ الشيخ عثمان بالحديث عن كرامات السادة الصوفية، وأخبرهم بأن الباشمهندس له اطلاع واسع حول هذه الكرامات.

قال الشيخ إبراهيم يبدو أن الباشمهندس لا يخلو من بركة والله أعلم، ولكن بالتأكيد ما به ليس مسًا من الجن.

جاء وقت صلاة الظهر فقام أحد الشيوخ برفع الإقامة، وطلبوا من الباشمهندس أن يؤمهم باعتباره صاحب البيت، إلا أنه اعتذر وطلب من الشيخ عثمان أو الشيخ ابراهيم أن يؤم الصلاة، إلا أنهم ألحوا عليه، فعلق الباشمهندس ضاحكًا:

- ربما هناك من يقول بأنه لا تجوز إمامة من ليس له ظل؟

تفاجأ الشيوخ بطرحه، إلا أن الشيخ ابراهيم حسم الأمر بالقول بأننا أهل الوسطية، والأعمال بالنيات، وأن الأصل في الأشياء الإباحة وطلب من الشيخ عثمان أن يتقدم، لأنه كما قال لا يريد أن يثقل على الباشمهندس، فهو ما يزال متأثرًا بوضعه، ولأن الشيخ عثمان هو أيضًا من أصحاب البيت، فهو والباشمهندس أهل.

تناول الجميع غداءهم، وأخذ علي الدرويش يعد الشاي، وجلس الجميع يتبادلون الحديث حول أحوال الدنيا وما يعتريها من قلق

الآن بسبب طغيان الجوانب المادية، والبعد عن الروحانية، وخلال حديثهم عن أحوال أهل الصوفية والدراويش، لفت نظرهم فعلًا المعرفة التي يحملها الباشمهندس عن هذه الأحوال، وزاد من استغرابهم إنه كان يعيش فترة طويلة، كما ذكر لهم الشيخ عثمان في أوروبا. لقد قال الشيخ منصور، عندما أبدوا استغرابهم مؤكدًا هذا العلم من علومنا، ولا علاقة لهم به في إشارة لأوروبا، وللتأكيد بأن الباشمهندس قد استقى هذه المعلومات بشكل ما من هنا.

وافقه بقية الشيوخ على رأيه، وظل السؤال في رأسهم: من أين للباشمهندس كل هذه المعرفة عن السادة الصوفية؟

***

6

جلس الباشمهندس فى المربوعة وحيدًا بعدما خرج منه المشايخ. وراح يفكر فى كلامهم حول الصوفية، وتساؤلهم واستغرابهم عن معرفته لأحوالها، وهو الذي عاش فترة طويلة فى أوربا.

أخد يحدث نفسه:

- ذاك هو حالنا، نحن دائمًا نتصور الأمور على غير حالها، ونتعامل مع ما نعتقده يقينًا. نتصور أن العالم الآخر لا يعرف عنّا شيئًا، وهم فى الحقيقة يعرفون عنّا أكثر مما نعرف نحن عن أنفسنا.

إنهم يقرؤون كثيرًا، وهم يدرسون كل شيئ ولا شيئ يتركونه للهوى والخواطر كما نفعل. ومن هنا فإنهم بالعلم والمعرفة وصلوا لما وصلوا إليه. وحتى في أمور ندعى أنها تخصنا مثل الصوفية، هم يدرسونها بشكل أكثر عمقًا ويكتبون عنها بموضوعية وبرصانة. وما علينا إلا أن نقارن بين كتاباتهم وكتاباتنا فى هذا الموضوع.

صحيح كانت معلوماتي عن الصوفية بسيطة قبل أن أخرج من ليبيا لا تتعدى حضور بعض الحضارى بسيدي الأندلسي، أو فى بعض البيوت أو الحلف بسيدي عبدالسلام الأسمر وسيدى النفاتي، وحتى سيدي بوشوشة في بعض الأحيان.

كانت نظرتى إلى الصوفية على أنها حركة سلبية، تدفع للإستكانة، وخضوع المريد لسيده الشيخ، يفعل ما يأمره به دون تفكير أو تردد، و أنها لا تعدو عن كونها تسليم بالأمر الواقع باسم الإيمان والقدر. ولكننى مع إيماني بمذهب العقل، أدركت الآن أن للصوفية عمق إنسانى رفيع، وأنها تدعو للخير ودعوة للمحبة ونبذ العنف والإكراه، وتحترم الإنسان كإنسان، وغنية بثراثها الثقافي والفني.

بل إن الدارس الجاد للحركة الصوفية يجد لها دورًا اجتماعيًا بارزًا في الحفاظ على هويتنا كل هذه القرون رغم كل ما تعرضنا له من غزو، ومن محاولات لطمس هويتنا الثقافية والحضارية.

نعم يا سادتى الشيوخ، اعترف لكم بأن صديقتي جوليا هي التي قدمتني لهذه الفلسفة العميقة، ولم أكن قبلها معني بالصوفية إلا من باب ثرات ورثناه كغيره من العادات والتقاليد؛ لم أكن أحسب أنها تنطوي على كل هذا العمق في فهم الوجود ومغزاه، ونظرتها الإنسانية المتكاملة والتي ترى في الناس جميعهم عباد الله، وأن الطريق إلى الله يبدأ بمحبة الناس.

كنت أكثر ميلًا للمعتزلة، ومعجب بمذهبهم العقلي أيما إعجاب، وكنت أقول بأنه أصابنا التأخر منذ أن قضى على هذا المذهب، وسيطر مذهب النقل على حساب مذهب العقل. ولكنني الآن اقتنعت بأنه لا

يوجد مطلق إلا الله، وأن الإنسان أعطاه الله عقلًا يفكر به، وقلبًا يحس به، وكلاهما يكمل الآخر؛ فإذا كانت هذه التقنيات التي نستعملها في حياتنا التي تمكننا من التنقل بين نهايات العالم بسرعة، وتمكننا من مشاهدة ومتابعة ما يحصل في أي بقعة من الكون ونحن جالسين في بيوتنا هى من انتاج العقل والعلم، فإن الإحساس بالجمال الذي مصدره القلب هو الذي جعل هذه الأشياء جميلة، نوظفها بالطريقة المثلى، وتضفى على حياتنا كل هذا الجمال الذي نعيشه.

والمتمثل في فن العمارة، وفي تنوع الموسيقى، وفي ازدهار مدارس الرسم، وفي ازدهار الآداب والفنون بشكل عام، بل إن آثارها تبدو جلية حتى فيما نلبس ونأكل. إنها معنية بالذوق والأخلاق والمحبة.

لا أنسى ذلك اليوم، وكيف كانت جوليا تحرص على حضوري هذه الندوة، وتقول لي إنها ندوة متميزة وستعجبك. وأتذكر بالتفصيل كل ما حدث أثناء الندوة، فقد كانت بالنسبة لي نقلة نوعية جعلتني أشعر بأنني متواضعًا في الكم المعرفي الذي كنت أحمله، وجعلتني أرى آفاقًا أبعد وأوسع مما يحيط بي، وأخذتنى إلى عالم رحب يتميز بالجمال والسعة.

عندما وصلنا القاعة عرفتني جوليا بالأستاذين هنري ونيكلاس، فقد كانا واقفين يتناولان القهوة، ويتجاذبان أطراف الحديث في ركن من الصالة.

كان الدكتور هنري في الأربعينات من عمره، يتميز بشعره الأحمر المنفوش، والذي يزيده انتفاشة إنه يتركه بلا حلاقة لفترة طويلة، كما يتميز بملابسه التي في أغلب الأحوال عبارة عن سروال من «الجينز»، وقميص أو فانلة فضفاضة نوعًا ما، مرخاة على جسده كأنها هي التي تلبسه وليس هو الذي يرتديها.

قالت لي جوليا إنهم يطلقون عليه لقب الدرويش الألماني لتبحره واهتمامه بالفلسفة الصوفية، حيث له بحوث علمية كثيرة تغطي هذا المجال.

أما صاحبه نيكلاس، فهو أستاذ الفلسفة الذي يغلب على ميوله العقلانية والعلم ويؤمن بالتجربة، وعادة ما يرتدي ملابس غير رسمية إلا أن ملابسه عادة ما تتميز بالأناقة، ومن الماركات المشهورة.

دخل هو وصاحبته جوليا وبحثا عن مكان في المقدمة ليستمعا جيدًا للمحاضرة التي بدأت، وأخذ هنري موقعه وبدأ في الحديث بتحية الحاضرين، وشكر اللجنة التي أعدت هذه الأمسية.

أخذ هنري يبحر بالحضور في بحار الصوفية، متنقلًا بهم بين أزمنة عدة، بدءً من القرن الثالث الهجري متنقلًا بهم من مدينة إلى أخرى؛ من بلخ إلى بغداد إلى البصرة إلى أصفهان، مرورًا بدمشق

والقاهرة وحتى قونيا، ليحط بهم في فاس مدينة الدراويش في هذا العصر كما قال.

يحدثهم عن أصدقائه الجنيد والبسطامي والعطار وابن عربى وجلال الدين الرومى. تحدث هنري باسهاب عن دور المرأة في الحركة الصوفية وقال بأن الصوفية تحترم المرأة وتقدرها، وأن التصوف يرى أنه لا تفاضل بين الذكر والأنثى وأن الله قد فضل الناس بعضهم على بعض بالتقوى وليس بنوع جنسهم.

وتحدث عن عدد من النساء الصوفيات، منهن رابعة العدوية وأم الخير البصرية، ورابعة بنت اسماعيل، ونفيسة بن الحسين بن زيد، وأشار إلى أنهن كن يحظين بالإحترام والتقديروكان يلجأ إليهن كثير من الناس ومنهم علماء الدين يستقون منهن الحكمة والمعرفة.

تناول قصة الحلاج ومأساته ببعض التفصيل، وتناول الظروف السياسية المضطربة في نهاية عهد الدولة العباسية، والصراعات التي كانت قائمة على أشدها، وتداخل الجدل الديني في السياسة بشكل كبير في ذاك الزمان.

كان هنري بأسلوبه المشوق يقطع بسامعيه الصحاري والبحار، متحدثًا عن الدراويش وأحوالهم، وناثرًا بعض القصص التي تمتلئ بالحكمة الصوفية، ومستعرضًا لبعض ما جاء بمنطق الطير

للعطار حينًا، ومستشهدًا ببعض من شعر مولانا جلال الدين الرومي حينًا آخر.

كان بأسلوبه القصصي المشوق يشد أسماع الحاضرين، وكان بحركات يديه وهو يتحدث كأنه يسبح في فضاء فسيح يعلو حينًا إلى السماء حتى يكاد ينسى المكان الذي هو فيه، ويعود من جديد إلى حيث هو! طارحًا استفسارًا سرعان ما يجيب عليه.

قال إن الصوفية هي الحكمة، وهي الخير، وهي البعد عن الكراهية، ومشاعر الحقد، وأن الصوفي غايته القرب من الله، ووسيلته حب الخير لمخلوقاته، فلا يمكن للإنسان أن يحب الله إذا لم يكن يحب الناس، ويعمل على خيرهم وسعادتهم .

كانت إيفا صاحبة هنري تستمع في سعادة إلى صاحبها وهو يسبح سباحة العارفين، ويحوم حول العالم، شارحًا أبعاد التصوف وعمق معانيه. وكان الكثير من حواري هنري من طلبته يستمعون في انتباه، ويشعرون بنوع من الغبطة، وهنري يحدثهم عن حالة الدرويش وما يغمرها من سعادة لحظات التجلي والوجد التي يعيشها الصوفي وهو في حالة الجذب.

حينها يتحرك الصوفي ويهتز جسمه متناغمًا مع ضربات الدف، ومصدرًا بعض الأصوات وهاتفًا: الله الله الله وهو هو هو.

كأن حديث هنري كان يرسم لوحات للمشهد، بل كأنه سينما تضفي عليها حركات جسمه وهو يتحدث مشاهد تصويرية تأخد سامعيه إلى تخيل الحدث كأنه حاضر أمام أعينهم.

عندما أنهى هنري محاضرته بدأت المداخلات، بالتعقيب من نيكلاس على حديث هنري حول الصوفية قائلًا:

- إن الصوفية تعبر عن تجربة ذاتية تخص صاحبها، وتعتمد على القلب والكشف للوصول للمعرفة، ولا يمكن التيقن من صحة ذلك من الناحية العلمية.

وتساءل ماذا يستفيد الناس من الزاهد الذي يحرم نفسه ويعيش في عزلة، ربما هو يعيش حالة من الرضا الذاتي ولكن ذلك لا يفيد الفقراء، ولا يوفر لهم طعامًا، وهو بزهده وعزلته عن الناس لا يقدم لهم حلًا، ولا يساهم بدور في خدمة المجتمع؛ نعم فالصوفية قد تكون منهجًا خاصًا لحياة بعض الناس، ولكن ما نحتاجه هو من يفكر ويستعمل العلم. الحياة تطورت بالعلوم التجريبية ولم تتطور بتعبد وزهد أهل التصوف وعبادتهم و دعواتهم .

واستمر نيكلاس قائلًا:

أنا هنا لا أقلل من أهمية الحياة الروحية والقيم الأخلاقية التي تستند إليها الفلسفة الصوفية، ولكن لا بد من إعطاء العلم مكانته. فنحن في

عصرنا الحاضر ننعم بالتقنية العالية التي طورت حياتنا وجعلتنا نعيش بشكل مرفه جدًا، مقارنة بالحالة التي كان يعيش عليها أسلافنا منذ مئات السنين، وذلك بأخذنا بأسباب العلم وبإعمال العقل.

العلم يستند لإعمال العقل إلى أقصى مداه من أجل أن نطور الحياة، ونحل مشاكل الإنسانية، والزهد والتصوف لا يلجأ إلى العقل والعلم في الوصول إلى السعادة الإنسانية.

قام هنرى ورد على تعقيب نكلاس وقال:

التصوف لا يعني الزهد والبعد عن الحياة، فالزهد في الدنيا شيئ، والتصوف شيئ آخر. واستشهد بما قاله ابن سينا في هذا الخصوص:

إن المعرض عن متاع الدنيا وطيباتها يخص باسم الزاهد، والمواظب على فعل العبادات من القيام والصيام يخص باسم العابد، والمنصرف بفكره إلى الله مستديمًا لشروق نور الحق في سره يخص باسم العارف وهو الصوفي.

وأشار إلى قول الجنيد: ليس التصوف بكترة صيام وصلاة، بل بطمأنينة القلب وتسليم الروح. وأوضح هنري بأنه ليس صحيحًا أن هناك تناقض بين العلم والصوفية، فلم تدع الصوفية يومًا إلى الإبتعاد عن الأخد باسباب العلم، بل إن العلوم الطبيعية ومكتشفاتها هى المرحلة الأولى للوصول إلى الحقيقة.

وأشار هنري إلى ما قاله الفيلسوف العقلاني والعالم الرياضي برتراند راسل بقوله: إن وحدة المتصوف مع رجل العلم تشكل أعلى مكانة مرموقة فيما اعتقداً يمكن انجازها في عالم الفكر . وختم هنري رده بالقول:

فعلًا ما قاله برتراند راسل، نحن في حاجة إلى وحدة العلم والتصوف لنخلق عالمًا متمدنًا جميلًا يجمع بين العلم والقيم الإنسانية الرفيعة.

ثم أخد هنري في الرد على أسئلة الطلبة وكثير منهم ممن يعدون الدراسات العليا بالجامعة، وكانت في معظمها ردًا على الإستفسارات الكثيرة حول ما تناوله هنري عن بعض الشخصيات الصوفية، وعن العلاقة بين الفكر الصوفي كفكر، والطقوس التي يقوم بها بعض المتصوفة، وما إذا كانت الصوفية تمثل منهجًا واحدًا، أم عدة مدارس مختلفة؟

أحد طلبة الدراسات العليا يعد أطروحته عن الحلاج علق فى مداخلته على حالة الحلاج بأن مفهوم الموت عند الصوفي ليس نهاية للحياة، بل ربما بدايتها؛ فما يريده الصوفي في قمة تجليه وفي حالة وجده هو القرب من الله. حتى حالة التوحد والتي عندها تتكشف الأنوار للصوفي، ويصل حالة الفناء التي يطمح إليها.

وقال طالب الدراسات العليا إن الحلاج في عشقه لله لا يرى شيئًا إلا ويرى الله فيه، مستحضرًا بعضًا من شعر الحلاج:

والله ما طلعت شمس ولا غربت

إلا وحبك مقرون بأنفاسي

ولا جلست إلى قوم أحدثهم

إلا وأنت حديثي بين جلاسي

ولا ذكرتك محزونًا ولا فرحًا

إلا وأنت بقلبي بين وسواسي

ولا هممت بشرب الماء من عطش

إلا رأيت خيالًا منك في الكاسِ

ولو قدرت على الإتيان جئتكم

سعيًا على الوجه أو مشيًا على الراسِ

ما لي وللناس كم يلحونني سفهًا

ديني لنفسي ودين الناس للناسِ

وقال إن هذا نموذج لحالة الوجد والشوق عند الحلاج والتي وغيرها من شعره تثبت بطلان اتهامهم للحلاج بالكفر والزندقة، وأن عملية قتله كانت سياسية بامتياز، فقد كان الحلاج- كما قال هذا

الطالب- منحازًا للضعفاء وضد السلطة فلفقوا له هذه التهمة متكئين على لغة الشطح التي تميز بها الحلاج.

واستمر الطالب في حديثه الذي كان واضحًا فيه إعجابه الشديد بالحلاج، إلى القول بأن الحلاج كان يرى في الموت قرب من الله، وقد ذكر الحلاج ذلك بشكل واضح، حيث ذات يوم وبينما كان يسير في أحد أسواق بغداد وهو في حالة عالية من الوجد، أخذ يصيح:

- أيها الناس اعلموا أن الله قد اباح لكم دميٱ اقتلوني تكتبوا عند الله مجاهدينٱ واكتب أنا شهيدًا.

واعتبر طالب الدراسات العليا أن بعض شطحات الحلاج وأقواله التي استخدمت في اتهامه إنما هي ناتجة من سوء فهم لغة الصوفي عندما يعتريه الوجد، وأن الصوفي يجب أن يفهم وفق حالته التي هو فيها، ولا يؤخذ كلامه بشكل مجرد، فحديث الصوفي في تلك الحالات هو معاينة للحالة التي يعيشها، ولا يمكن لمن لم يعش تلك الحالة أن يفهم اللغة التي يتحدث بها.

وقال الطالب الباحث: كانت مشكلة الصوفيين منذ البداية مع اللغة، فاللغة عاجزة عن التعبير الحقيقى عن الأحوال التى يعاينها الصوفي وأن الحلاج قدَّم حياته ثمنًا لمحاولته التعبير عن هذه الأحوال بلغة غير مألوفة للعامة.

وخلص الطالب إلى أنه لا أحد يعرف اليوم أو يذكر أولئك الذين قتلوا الحلاج، ولكن الحلاج ظلّ حيًا في ذاكرة الناس، ورمزًا للتضحية والفداء والحب والعشق الإلهي.

بعض الطلبة صغار السن كان اهتمامهم الأكبر حول امكانية أن يكون الفكر الصوفي بابًا لعالم جديد، خالٍ من الكراهية والحقد والحروب التي دمرت العالم بسبب الأنانية والرغبة في الإستحواد على خيرات العالم.

إحدى الطالبات الناشطات في مجال البيئة والسلام واسمها لارا ردت على تعليق د. نكلاس ونهجه العقلانى العلمى فقالت:

– انظروا ماذا قدم لنا اهل الطبيعة؟ لقد حولوا كوكبنا إلى مكب للقمامة بكل أنواعها، ولوثوا الأرض والبحار وحتى الهواء الذى نستنشقه؟ سيأتي زمن لن تجد الأجيال القادمة مكانًا على الأرض تعيش فيه، ومن سيكون الضحية؟ إنهم الفقراء كالعادة الذين ليس لديهم الإمكانيات لغزو الفضاء، أما أصحاب النفوذ والثروة فسيبنون مستوطنات في الفضاء.

وأكدت الطالبة لارا على ضرورة إعطاء القيم الروحية وزنًا أهم، وأن الحب وعمل الخير هو أرفع المثل التي يجب نشرها وبثها بين الناس، ليعيش العالم كله في سلام، بعيدًا عن الثلوث والحروب والدمار.

واستأنفت لارا قائلة :

– ماذا فعلنا نتيجة صراعاتنا وتنافسنا خلال المئة سنة الماضية أيها الأصدقاء، لقد قتلنا أكثر من مئة وخمسين مليون إنسان في حروبنا الظالمة، وشردنا عشرات الملايين من البشر، ودمرنا آلاف المدن، وخربنا عشرات البلدان التي كانت مزدهرة وتعيش فى أمان، وها نحن ما زلنا نسير في نفس الطريق؛ انظروا حولكم ماذا ترون؟ مئات الآلاف من القتلى وملايين المهاجرين الفارين من جحيم الموت والفقر والعوز، فأي حضارة هذه التى نعيشها؟

نعم نحن في حاجة لفكر جديد ينبذ العنف، وينبذ الجشع الذي يقضي على البشر والطبيعة، وأعتقد أن هذه القيم الإنسانية الراقية التي تدعو لها تيارات فكرية مثل الصوفية ومثيلاتها لها أهميتها في جعل حياتنا لها معنى حقيقي وبناء وليست دعوة للتأخر ولا عائقًا يحول دون التقدم. أنا مع نيكلاس في أهمية العقل والعلم، ولكن لا بد أن يكون ذلك مرتبطًا بالقيم الروحية، وبالنظرة الإنسانية، وإلا فإن العلم مجردًا سيوظف لإستعباد البشر بدل الرقي بهم.

كان الباشمهندس جالسًا بجانب صديقته جوليا، يتابع باهتمام بالغ هذه الندوة التي أخذته إلى اجواء بعيدة، وكان منبهرًا بهذه المعرفة العميقة التي تبدت فيما يناقشه هؤلاء حول التصوف الإسلامي.

أخدته الحوارات العقلية والسجال إلى أجواء بعيدة، حيث بلدته وإلى كتاب البلدة الذي كان يتعلم فيه القرآن.

يا الله... على الرغم من اهتمامهم بقراءة القرآن فى بلدته وحفظه، إلا أنه كمن اكتشف بأن الإهتمام فى بلدته كان منصبًا على المظهر واللباس والهيئة والأكل، وليس على التدبر في معاني القرآن بشكل عميق.

أين سورة «اقرأ»، أول سورة نزلت في القرآن (اقرأ باسم ربك الذى خلق خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم)... ها هو هنا في هذه الندوة يعيش هذه المعاني بكل حقيقتها، فهؤلاء يقرؤون ويعتمدون العلم، لذا يتحدثون حديث المعرفة لا حديث الخرافة، والسجال لا تكفير فيه ولا كراهية، فرغم هذا الإختلاف البين بين أفكار هنري ونيكلاس، وكلاهما ضليع فى الفلسفة، إلا أنه تربطهما صداقة متينة كما ذكرت له جوليا!

قال فى نفسه: عندنا، لو لم تكن نسخة مني فأنت عدوي.

أسئلة كثيرة كانت تتكاتر في رأسه بشكل متسارع، وهو يتابع في انتباه مجريات الحوار والنقاش في هذه الندوة. أشياء كثيرة مختلفة، فهنا لا أهمية للألقاب، فهذان استاذان لهما مكانتهما العلمية بما ينشرانه من أبحاث في الدوريات العلمية، ومع ذلك ينادوهما بكل

عفوية باسمهما المجرد دونما لقب دكتور أو بروفسور، ولا وجود للغة التملق بل لغة صريحة سهلة، ولا أحد يشعر بحرج في ذلك.

وهؤلاء الطلبة الشباب يسألون أساتذتهم بكل شجاعة، ويعبرون عن آرائهم بكل حرية دون خوف من سوء الفهم؛ مثل لارا هذه الفتاة المتحمسة للسلام والبيئة والتي رغم نقدها اللاذع لما عبر عنه أستاذها نيكلاس، إلا أنه علم بأنها إحدى الطالبات المقربة إليه بسبب مشاكساتها الفكرية وجديتها فى البحث والدراسة.

عندما انتهت الندوة جاءت ايفا لجولى، وكانت واقفة مع الباشمهندس وسألتها:

- آه هذا اذا صاحبك الجديد؟ أنتِ محظوظة، تحصلت على درويش حقيقي!

ابتسمت جوليا وقدمت صديقها لإيفا وقالت لها:

- اطمئني، الدرويش صاحبك هنري، أما صاحبي هذا فهو كما يبدو حتى الآن أقرب إلى فكر نيكلاس...

وألقت ايفا نظرة تتبعها ابتسامة مغرية على الباشمهندس وقالت بنوع من الغنج إنه فعلا وسيم، اين تحصلت عليه؟

ابتسمت جوليا وقالت لها: دعي حبيبي لي وكوني مع صاحبك، فهذه لارا تحيط بصاحبك هنري وتناقشه، إنها فتاة خطيرة!

- آه لا عليكِ، لارا هذه عينها على نيكلاس وغير مهتمة بهنري!

- كيف، وهى قد انتقدت حديث نيكلاس؟

- آه يا صديقتي، ألا تعرفين بأن أقوى العلاقة هي التى تتم بعد خصام؟ هذه فتاة طموحة، تصورى رغم صغر سنها إلا أنه تم انتخابها مؤخرًا في قيادة حزب البيئة! انها فتاة طموحة وتريد رجلًا مثل نيكلاس ينفع في إعطائها وجاهة بموقعه العلمي وغير مهتم بالسياسة.

- وكيف عرفتِ ذلك؟

- أنا قريبة من حزبهم، ونتعاون في بعض الأعمال الخيرية وزملائها حدثونني عنها، ولاحظوا اهتمامها الخاص بنيكلاس.

- وهل ستصل إلى مبتغاها يا ترى؟

- قلت لكِ إنها فتاة خطيرة وذكية، وإذا وضعت شيئًا في رأسها فهي لا تكل ولا تمل حتى تصل إلى مبتغاها؛ أعتقد بأنها ستصل إلى ما تريد، ولا تنسي بأن لها جاذبية، ونيكلاس يميل إلى هذا النوع المشاكس من النساء... إنها تعرف جيدا ماذا تفعل.

***

دخل الباشمهندس وصاحبته شقتهما، تغمرهما السعادة بعد هذا اليوم الممتع، الذي كان مليئًا برسائل الحب الصوفي وأجوائه الروحانية.

أضاءت جوليا غرفة الجلوس ببعض الشمع، وقالت لصاحبها: ما رأيك نعد فنجانًا من القهوة، ونستمع لبعض تسجيلات الموسيقى الصوفية. نستمع لبعض عزف الناي صديق صاحبنا الرومي.

جلسا يتناولان القهوة وهما يستمتعان بالإستماع للموسيقى، وتلتصق جوليا بصاحبها ملقية برأسها على كتفه في دلال.

- قالت جوليا: ما رأيك يا حبيبي في ندوة اليوم عن الصوفية، هل أعجبتك؟

- نعم، كانت اكثر من رائعة- قال الباشمهندس.

- هل كنت تميل أكثر لما قاله نيكلاس أم أعجبك حديث هنري؟

- الحقيقة؛ لقد كان هنري أكثر من رائع، إنه بحار ماهر يبحر بك في عوالم لا نهاية لها، بأسلوب شيق ممتع وغني بالمعرفة ؟

- آه كنت اتوقع أنك أكثر ميلًا لما قال نيكلاس، فأنت دائمًا تتحدث عن إعمال العقل للخروج من التخلف؟

- نعم بالطبع ما زلت عند رأيي، ولكن كما قال هنري وهو يشير إلى «برتراند راسل» نحن في حاجة إلى العقلانية والعلم وأيضًا في حاجة إلى القيم الروحية المتمثلة في الصوفية، واجتماعهما يحقق «الهارموني» في الحياة؟

- آه «هارموني» يا حبيبى! كما نحن الآن أسمع نبضات قلبك كأنها ضربات دف تبعت في نفسي الحياة والنشوة هههه.

كانت جوليا في قمة سعادتها، وزاد التصاقها بصاحبها، وأخذت تقبله على عنقه وعلى خديه. ثم جذبته وقالت: قم بنا نرقص على أنغام الناي رقصة المولوية. ووقفا ورمت برأسها على كتفه ويدها اليمنى على ظهره، وأحاط يده اليمنى على خصرها ومسكت يده الأخرى مشبكة أصابعها بأصابعه وبسطت يداهما إلى الجانب كما يفعل المولوية، وأخذت تدور وإياه دورانًا ناعمًا يتناغم مع عزف الناي المنبعث من جهاز الموسيقى.

أخذا يدوران حول نفسيهماأدورانًا ناعمًا، وكانت تضغط بجسدها على جسده، فهذا رطب ناعم يملأه الدفء والشوق، وذاك صلب تزداد صلابته كلما ضغطت بجسدها نحوه، وظلا في دورانهما حتى اقتربا من الكنبة، وبحركة تعبر عن رغبة متبادلة، ألقيا بنفسيهما عليها.

***

أفاق الباشمهندس من رحلته البعيدة، وقال فى نفسه: تقول يا شيخ منصور، هذا العلم من علومنا ولاعلاقة لهم به؟!

العلم لا وطن له يا شيخنا الفاضل، ومن يملك سلطان العلم ويحترم العقل هو العارف بأحوال العارفين وبأحوالنا حتى وإن كان بعيدًا عنّا.

(7)

فى المساء جاء أحمد، ابن الباشمهندس، وكانت معه أمه وأخته فاطمة، فقد شعروا بالقلق لغياب الباشمهندس ويريدون أن يكونوا قريبين منه.

سمع الباشمهندس صوت ابنته فاطمة وهي تدخل إلى البيت القديم فناداها وقال لها:

- تعالي سلمي على عمك علي الدرويش.

دخلت فاطمة، وبعد أن سلمت، عاتبت أباها كيف يغيب عنها ولا يأتي إلى البيت، وأردفت قائلة:

- كنت سآتي للمبيت معك، ولم أرتح إلا بعد أن أخبرني أحمد بأن عمي علي الدرويش سينام عندك.

ابتسم علي الدرويش وقال لها:

- اطمئني يا ابنتي، فأبوك صاحبي ولن أتركه وحيدًا.

ردَّت عليه فاطمة:

- نعم أعرف ذلك، وأنا لا أرتاح إلا عندما أعرف بأنك معه، فأنت البركة يا عمي علي.

تركتهما فاطمة ودخلت إلى البيت حيث أمها. أما علي الدرويش فقد استأذن في الخروج والذهاب، ووعد الباشمهندس بأن يمر عليه في الصباح.

اجتمعت العائلة كلها في المربوعة؛ الباشمهندس وزوجته وابنته فاطمة وابنه أحمد، وبدأت الحاجة في إعداد الشاي وتحميص الفول السوداني، وبدأت الأسئلة تنهال على الباشمهندس من العائلة، خاصة من فاطمة:

- ماذا يجري؟ ولماذا بقي في البيت القديم البارحة ونام، ولم يعد إلى البيت؟

قال لهم أحمد كيف وجد والده يوم أمس وهو يبدو عليه الإرهاق ولم يكن على ما يرام، وطلب منه إحضار عمه علي الدرويش.

أخذ الجميع يتحدثون ويتناقشون، وهذا أسلوب قد عودهم عليه الباشمهندس، فهو ديمقراطي حتى في البيت، وقد عود أبناءه على أن يعبروا عن رأيهم بحرية وبأريحية دون أن يخشوا سوء الفهم أو كلمة تأنيب من الأب أو الأم.. تعودوا على طرح الأسئلة، وتعودوا على أنه من حقهم الحصول على إجابة.

ضحك الباشمهندس وقال لهم تعبت قليلًا، وتعرفون أن «علي الدرويش» صديق الطفولة رجل مبارك فأحببت أن أقضي معه الليلة أسامره، فلنا فترة لم نجلس مع بعض ونتحدث.

كانت الحاجة تستمع إلى الحديث ولكنها لم تشارك كثيرا فيه، بل كانت تتشاغل بتحميص الفول السوداني الذي كانت تعده للطاسة الثالثة من الشاي. وتريد أن تتحدث مع زوجها على انفراد عندما يخلد أبناؤها للنوم وتذهب هي وزوجها إلى غرفتهما.

عندما اختلى الباشمهندس وزوجته أخذت تعاتبه، فقالت له:

- أنا أعرفك جيدًا، أنت مشغول بخصوص عرس فاطمة، وأنت دائمًا تأوي إلى الجنان كلما أحسست بضيق؛ أعرف أن هذا الجنان يعني لك الكثير، وإذا رغبت فأنا ليس لدي مانع أن ننتقل ونسكن حتى هنا فى بيت أبيك القديم؛ بالنسبة للعرس فأبشرك بأنه لن تكون هناك مشكلة، فقد جاءني أخي محمود يوم أمس وأخبرني بأنهم يزمعون بيع قطعة الأرض التي تقع على الشارع الرئيس، وهي ذات قيمة محترمة، وسيكون نصيبي من الإرث مبلغًا لا بأس بها يغطي تكاليف عرس فاطمة وزيادة. فأخي محمود تاجر فتح الله عليه، وهو يعزك كثيرًا، ولو احتجنا لأي مبلغ الآن فيمكننا أن نأخذه منه، وندفعه فيما بعد من نصيبي في الميراث.

تنهد الباشمهندس، وقال يا أم فاطمة- وهو الاسم الذي عادة ما يطلقه عليها في حالات الصفاء والانسجام- ماذا أقول لكِ، صحيح كنت مشغولًا بعرس فاطمة، ولكن!

تحيرت زوجته وقالت إن شاء الله خيرًا؛ ماذا تعني ولكن؟

لقد استغربت تردد الشيخ عثمان عليك كثيرًا كما قال لي أحمد، والضيوف الذين معه، ولكن توقعت أنك ربما تفكر في بيع قطعة أرض من الجنان؟ ما هو الموضوع، لقد حيرتني؟

- ماذا أقول لك يا أم فاطمة؟ لست أدري من أين أبدأ، ولكن أريدك ألا تنشغلي.

- لقد شغلتني.. ربنا يستر، لا تقل لي إنك مريض، أو أن شيئًا أصابك؟ ما هو الموضوع؟

- يا أم فاطمة لا تنشغلي، ولكن بالروية، سأحكي لك هذه القصة الغريبة التي حصلت لي.

انتبهت أم فاطمة بكل حواسها، وهي تستمع إلى زوجها يروي ما حدث.

استغربت أم فاطمة ما حدث، وخشيت أن يكون شيء أصاب زوجها، ربما مس من الجن أو سحر أو شيء من ذلك، وسألت زوجها:

- هل أخبرت صاحبك علي الدرويش؛ فهو إنسان صاحب بركة ومن رجال الله، ويحبك كثيرًا، والجميع يعرف ذلك؟

- نعم أخبرته، وهو طمأنني وقال ربما هي رسالة تزول بعد فترة لكنه ليس مسًا من الجن. بل حتى الشيخ ابراهيم عندما زارني اليوم

أكد ذلك، وقال ربما هى إشارة ما. لست أدري ما الموضوع، ولكن هذا الذي حصل يا أم فاطمة.

أصابت الحيرة أم فاطمة، وذهب تفكيرها إلى أنه ربما بعض النساء قد عملن شيئًا، فربما إحداهن من غيرتها تريد أن تنكد عليها لتبطل عرس فاطمة؛ صحيح هي لا تعطي هذه الأمور بالًا ولا تصدقها، ولكن الأمر قد وصلها الآن، وبدأت تتذكر الكثير من الحالات التي ترويها بعض النسوة عن السحر، وعن الكثير من القصص التى حصلت للبعض منهن بسببه.

أعادت السؤال على زوجها:

- هل أنت متأكد بأن صاحبك علي الدرويش قال بأنه لا يوجد سحر؟ وماذا عن الشيخ عثمان؟ هل سألته، فهو له صلة ببعض الذين يكتبون السحر، والكثيرون يستعينون به لإبطال السحر، فله معارف ؟

- الشيخ عثمان الحقيقة بارك الله فيه، أتاني بمجموعة من الشيوخ وقد عزم على الشيخ إبراهيم، وهو شيخ معروف وله وزنه وأكد بأنه لا شيء من ذلك حصل لي.

لم تستطع أم فاطمة أن تنام، وظلت هي وزوجها يتسامران ويمر أمامهما شريط حياتهما المشتركة في لمح البصر، سنوات تجاوزت ربع قرن، شعرا بالدفء وهما يقتربان من بعضهما البعض أكثر وأكثر، ويلتصقان ليكونا جسدًا واحدًا، يكتمل فيه رباطهما المقدس.

شعرت أم فاطمة ببعض النشاط في الصباح على الرغم من سهرها معظم الليل، وأخذت تعد العصيدة، بل على الرغم من انشغالها لما حدث لزوجها، إلا أن حديثهما ونومهما الليل البارحة بعث فيها تلك النشوة والسعادة التي كانت تغمرها عندما كانا في بداية زواجهما.

ضحكت في نفسها وقالت إنه السحر، هذا الذي أيقظ النار الليلة الماضية؛ ما أروع أن تحب وأن تكتمل مشاعر الحب هذه بالالتصاق حتى درجة الإتحاد.

أم فاطمة امرأة جميلة، متوسطة الطول، لها جاذبية خاصة، تشتهر بطيبتها وبروح النكتة لديها، درست بكلية العلوم قسم الكيمياء، وعندما تخرجت عملت بالمدرسة الثانوية للبنات؛ كانت محبوبة من طالباتها اللاتي يعجبن جدًا بأناقتها وذوقها في اختيار الملابس التي ترتديها؛ فهي دائمًا أنيقة، ولها جاذبية خاصة؛ رشحت لأن تكون مديرة المدرسة لكنها اعتذرت عن ذلك وفضلت أن تستمر في العمل كمدرسة.

كانت هي والباشمهندس جيران، وقد كانت تربطها علاقة صداقة بأخت الباشمهندس، حيث كانتا في نفس العمر؛ كانت صديقتها تحدثها دائمًا عن أخيها الباشمهندس الذي يدرس في ألمانيا، وكانت تمزح معها وتقول لها أريدك أن تكوني زوجة أخي.

أم فاطمة تعرف الباشمهندس معرفة سطحية لا تتعدى كونه جارهم وأخ لصديقتها، وعندما سافر الباشمهندس للدراسة بالخارج كان عمرها حوالي أربعة عشر سنة.

ما تزال تتذكر ذلك اليوم عندما اتصلت بها صديقتها وقالت لها بأنها ستزورها في البيت لأمر هام؛ كانت فترة امتحانات، وقد عادت لتوها من الجامعة مساء ذلك اليوم، وتريد أن تحضر لإمتحانها إلا أن صديقتها ألحت عليها في ضرورة اللقاء.

لم يكن لدى أم فاطمة آنذاك أي فكرة عن الهدف من هذه الزيارة المباغتة لصديقتها، ولكنها توقعت بأن صديقتها ربما ستستشيرها في بعض الأمور المتعلقة بالإعداد لزواجها، فقد كانت أخت الباشمهندس قد خطبت آنذاك من أحد معيدى الكلية التي تدرس بها.

أخدتها صديقتها على انفراد، وجلست معها، وبادرتها بالقول:

- هل رأيت ماذا أقول لك منذ سنوات؟

أجابتها قلتِ الكثير يا صديقتي.. ماذا تقصدين؟

- لا لا.. عن شيء خاص ومحدد.. هل تذكرينه؟

- وكيف لي أن أذكر ونحن نتحدث عن مليون موضوع، وأنتِ ما شاء الله عليك لا تعدمين اختراع موضوع للحديث؟

- الله يسامحك، هذا جزائي لأنني أعتبرك صديقتي وأقول لكِ كل شيء.

- معذرة صديقتي أنا أمزح معك، وفعلًا أنت صديقتي وأعز صديقة عندي؛ وقبلتها على خدها تراضيها.

- إذًا اسمعي وفكري في الموضوع جيدا، ولا أريدك أن ترفضي.. لقد اتصل بي أخي من ألمانيا وقال لي بأنه سيعود ربما بعد ستة أشهر، وبعد الحديث معه عن الزواج قال لي ابحثي عن فتاة فربما إن كانت مناسبة أخطبها عند عودتي وأتزوجها... لقد حدثه عنك وقلت له إنك تدرسين الكيمياء بالجامعة، وقد تذكرك وضحك وقال آه تلك الفتاة صاحبتك؛ أتذكر إنها جميلة وهادئة... آه ما رأيك؟ أريد أن تكتمل الصحبة وتصيرين زوجة أخي، إنه شاب ممتاز والجميع يحبونه.

تفاجأت أم فاطمة حينذاك بهذا الخبر الصاعق الذي لم تتوقعه ونقلها بعيدًا إلى أحلام كبيرة؛ عن أسرة وأطفال وزواج من شاب تعرف إن كثيرًا من بنات الحي يتحدثون عنه ويتمنين الارتباط به.

- آه.. ماذا تقولين.. لقد سكتِ؟

أفاقت من رحلتها القصيرة، وكانت عيناها تضحكان، وقالت بشيء من الخجل ربنا يقدر الخير.

- أفهم من كلامك إنك موافقة؟

- إن شاء الله ربنا يكمل بالخير، عندما يأتي نتقابل، وإن كان هناك نصيب فستشتغل الكيمياء.. قالت ذلك بضحكة خفيفة.

- لن أؤخرك عن دراستك، أعلم بأنها امتحانات الآن، ولكن لأن هذا الأمر مهم، فلم أرد أن أؤجله وجئتك على وجه السرعة.

- مع السلامة.. أتركك مع كتبك وبالتوفيق إن شاء الله.

ودعتها صاحبتها وعادت هي إلى كتبها، ولكن أحرف الكتاب الذي كانت تقرأه وأسطره صارت تطير بعيدًا وتحلق في آفاق بعيدة وأحلام جميلة.

يا لها من مفاجأة سارة أتت بها صاحبتها، حتى إن كانت في غير وقتها فهي في وقتها؛ مثل هذا الخبر كل زمان وقته، ها هي أحلامها قربت من التحقق، ستتخرج قريبًا من الجامعة، وها قد جاءها خيرة شباب الحي خاطبًا، آه استدركت إن سخر الله الحال.

بدأت تراودها الأحلام بالأسرة والاستقرار، وبدأت تضع الخطط في كيفية تربية أطفالها، بل تصورت أحدهم سيكون مشاغبًا وسوف تؤدبه وتعاقبه بحرمانه من بعض الهدايا حتى يحسن تصرفه.. راحت بعيدًا وهي تحاول إعادة تركيب صورة الباشمهندس، هذا الشاب اللطيف الذي تعودت رؤيته مع صاحبه علي الدرويش كلما عاد إلى البلدة فترة الصيف؛ وتداعى إلى مخيلتها كل الكلام الذي كانت

تسمعه في المناسبات، عندما كانت فتيات الحي يمزحن ويتحدثن عن أحلامهن بأريحية وبكل براءة، وكنّ كثيرًا ما يأتين على سيرته في حديثهن؛ زمن يمضي سنين عددًا، ونستعيده في برهة، وفي لحظة بكل تفاصيله حتى الصغيرة منها.

أفاقت على صوت الباشمهندس يناديها، فقد خرج أبناؤهما إلى الجنان يستكشفانه، وكانت تعد القهوة التي يحبها زوجها.. جاءت أم فاطمة وجلبت معها القهوة، وحدقت في وجه زوجها بابتسامة كأنها تستكشفه لأول مرة.

استغرب الباشمهندس نظرتها تلك، وقال لها: ماذا عندك يا أم فاطمة، تنظرين إلي بنظرة غريبة نوعًا ما.. هل حصل لي شيء جديد؟

ابتسمت وقالت: ماذا أقول لك، لقد كنت في رحلة بعيدة؟

- أين إن شاء الله؟

- كنت أتخيل اليوم الذي التقينا فيه أول مرة، وكنت خجلة أن أنظر إليك، وكنت تلاطفني وتحاول أن تبعد الخجل مني.

ضحك الباشمهندس وقال لها: فعلًا لا أزال أذكر ذلك اليوم، ومنذ رأيتك قلت هي لا غيرها... وأخذا يستذكران أحداث تلك الأيام.

رفع الباشمهندس فنجان قهوته، وسقطت نظراته على فتحة فستانها عند الصدر، فقد كانت مفتوحة وكان يبدو من الفتحة نهديها

طليقين دون الصدرية ويرقصان عند كل حركة تقوم بها. انتبهت إليه فابتسم وقال لها:

- ما رأيك أن يكون النهار ليلًا؟

تفاجأت بقوله وخشيت أن يكون شيئًا جديدًا قد حدث له.

- ماذا تقصد؟ قالت باستغراب.

- أقصد يا عزيزتي مثل ليلة البارحة!

ابتسمت وقالت بعد الغداء عليك بالنوم قليلًا استعدادًا للسهرة، وأخذا يضحكان ويمزحان على هذا السِحر الذي أعادهما إلى بداية زواجهما.

***

(8)

جاء الشيخ عثمان وبصحبته الشيخ عز الدين وقد رحب الباشمهندس كثيرًا به، فهو يحترمه ويقدره؛ الشيخ عز الدين من أعيان الحي، درس بالجامع الأزهر وهو الآن يقوم بالتدريس في المعهد الديني، كما يقوم بإعطاء بعض الدروس بالجامع، وهو شخصية تتمتع باحترام كل سكان الحي.

يحاول الشيخ عز الدين أن يكون محايدًا ولطيفًا مع الجميع وتربطه بالشيخ عثمان علاقة وطيدة، فهو الذي يساعده في الكثير من الخدمات، خاصة الوساطات مع المسؤولين.

ما يهم الشيخ عز الدين هو الاعتناء بأسرته وأبنائه، بعضهم أنهى تعليمه، وأحدهم الآن يدرس الطب في بريطانيا، وقد لعب الشيخ عثمان دورًا في حصوله على منحة دراسية. جاء الشيخ عز الدين ليستطلع الأمر بعد أن أخبره الشيخ عثمان بما حصل للباشمهندس، وهو يعتبر الباشمهندس من الناجحين في حياتهم، ومعجب بتواضعه وعلاقاته الحسنة مع الناس.

لم يعرف كيف يبدأ استفساره عن حالة الباشمهندس، إلا أن الباشمهندس أدرك مرام الشيخ عز الدين، فبادره بالقول لا بد يا شيخ

عز الدين أن الشيخ عثمان قد أخبرك بما حصل معي.. هذا أمر الله، والحقيقة لم أستطع حتى الآن فهم هذا الأمر.

هنا تأكد الشيخ عز الدين بأن ما أخبره به الشيخ عثمان صحيحًا، فتشجع وبدأ يطرح الأسئلة على الباشمهندس، مستفسرًا منه عما حصل بالتفصيل.

بعد أن أخبره الباشمهندس بالقصة كاملة، قال الشيخ عز الدين:

- سبحان الله.. ماذا أقول لك؛ الله على كل شيء قدير، وربما كما قال الشيخ إبراهيم، كما روى لي الشيخ عثمان؛ قد تكون إشارة معينة اختارك الله لها. ادعُ الله يا ابني أن يحفظك، فأنت تستحق كل خير، وأنا دائمًا أضرب بك المثل لأبنائي فى نجاحك وحسن أخلاقك.

أخذ الحديث يتشعب، والشيخ عثمان يقول بأن الشيوخ الذين زاروا الباشمهندس قالوا بأنه لا يخلو من بركة، وأنه- والله أعلم- قد تكون هذه كرامة له خصّه الله بها ويجب أن ينفع الناس بما أعطاه الله!

ضحك الباشمهندس، وقال:

- يا شيخ عثمان لا تبالغ في الأمر، فأي كرامة؟ أنا لست من أولياء الله الصالحين، وأنا انسان عادي، والشيوخ في الحقيقة هم أمثالكم، ولست أنا.

ابتسم الشيخ عثمان وقال:

- يا شيخ الظل، تعترف أو لا تعترف لنا فإن الله قد خصك بكرامة، والمشيخة الكبيرة، ورجال الله هم هكذا لا يحبون إظهار ما أعطاهم الله من نعمة المعرفة اللدنية.

والتفت إلى علي الدرويش يسأله:

- ما رأيك يا علي؟ بصراحة أنا أعرف وكل الحي يعرف بأنكما صديقان منذ الصغر، وعلي الدرويش ما شاء الله عليه بركة، وأنت أيضًا يا شيخ الظل بركة، تكملان بعضكما البعض؟

لم يعلق علي الدرويش، واستمر في إعداد الشاي؟

قال الشيخ عثمان موجهًا حديثه للشيخ عز الدين:

- بالله قل يا شيخ عز الدين، متى رأيت علي الدرويش يخدم أحدًا من سكان الحي أو يتعامل معه بهذه الأريحية إلا مع صاحبه الباشمهندس؛ فعلًا إنها علاقة خاصة، وهكذا دائمًا رجال الله تجدهم يكملون أدوار بعضهم البعض.

- يا شيخ عثمان، ربنا يقدر الخير، ودعواتكم لي أن تنجلي هذه المشكلة قريبًا.

واستمر شيخ الظل موجهًا حديثه للشيخ عز الدين: بالله يا شيخنا الفاضل، هل حدثت مثل هذه الأشياء في السابق؟

قال الشيخ عز الدين: لا أعرف إن حصلت مثل حالتك بالضبط، ولكن هناك دون شك كرامات لكثير من السادة أولياء الله الصالحين، فالله يمكن أن يخصهم بأشياء، وهذه أمور معروفة.

- ولكن يا شيخ عز الدين، أنت تعرف بأنني لست شيخًا وأنني مهندس، ومعلوماتي حول الدين متواضعة من الناحية العلمية، وهي لا ترقى إلى مستوى المشيخة؟

- يا ابني- قال الشيخ عز الدين- هناك معرفة علمية، ولكن هناك معرفة أخرى يهبها الله لمن يشاء.

وبدأ الشيخ عز الدين يروي قصة العبد الصالح الذي جاءه سيدنا موسى ليعلمه، وقال:

- هذا الرجل الصالح سيدنا الخضر لديه من العلم اللدني، وعلى الرغم من أن سيدنا موسى نبي ورسول وخصه الله ببعض المعجزات، إلا أنه لم يكن على علم بما علمه الله للعبد الصالح وإطلاعه على بعض الأسرار الغيبية.. فالله أعلم ويهب الحكمة لمن يشاء.

أكد الشيخ عثمان على ما قاله الشيخ عز الدين وأخذ يروي الكثير من القصص حول أولياء الله الصالحين وكراماتهم، بل أخذ يروي حتى كرامات بعض من يعرفهم من المشايخ الذين تربطه بهم علاقة، والذين عادة ما يزورهم في زواياهم الصوفية بمختلف مناطق ليبيا.

شعر الباشمهندس ببعض الحرج في أنهم يتعاملون معه كأنه أحد هؤلاء المشايخ، فأراد تغيير دفة الحديث وسأل الشيخ عز الدين عن أحوال ابنه الذي يدرس في بريطانيا؟

قال الشيخ عز الدين: الحمد لله؛ متفوق في دراسته وقريبًا إن شاء الله سيتخرج؛ لقد زرته الفترة الماضية، ونشهد بالله إنها بلاد النظام والتقدم.

ثم التفت إلى الشيخ عثمان وقال: تعرف يا شيخ عثمان؛ ما شاء الله الأمطار هناك لا تتوقف والأنهار تجري والدنيا حيثما ذهبت خضراء.. وأخذ يصف الحياة في بريطانيا؛ في نظامها ونظافتها وتقدمها، حديث المعجب، وقال: نتمنى أن نصل يومًا لما وصلوا اليه.

- قال الشيخ عثمان: يا شيخ عز الدين هؤلاء جنتهم في دنيتهم!

ابتسم الباشمهندس، وقال في نفسه: هذه الجملة قلتها ذات يوم في مكان بعيد.

ورحل الباشمهندس إلى زمن مضى.

***

كان ذلك في منتصف شهر يونيو حين ركب السيارة هو وصديقته جوليا متوجهين إلى بيت والديها الصيفي بمنطقة بفاريا؛ ما أن خرجا من المدينة حتى احتضنتهما الطبيعة الخلابة، سهول واسعة منبسطة حد البصر خضراء يتماوج فيها الإخضرار بكل درجاته... وحينًا

يمران بنهر تتناثر حوله الأشجار، وحينًا هضاب ترتفع وتنخفض تكسوها الأعشاب وتغطي بعضها الأزهار بألوانها المختلفة، بعدها دخلا في طريق ضيقة زراعية تخترق غابة كثيفة وتصعد الطريق فترى غابات تمتد حد البصر تحت ناظريهما.

كانت هناك تعرجات في الطريق، وتنتشر علامات التحذير من الغزلان البرية، وبين الحين والحين ترى أرنبًا بريًا يقطع الطريق بوثباته السريعة قاطعًا الطريق، ملتفتًا نحو السيارة كأنه محتج على هؤلاء الغزاة الذين يعكرون صفوه بهذا الإسفلت الذي قسم جنته إلى شطرين؛ كان الوقت ضحى والشمس تبعث أشعتها الدافئة، بل الساخنة، متخللة نافذة السيارة.

قالت جوليا:

- إن الجو رائع اليوم... لا بد أن نسبح في النهر عند وصولنا.

فرد عليها: نحن الآن سابحون في جنة الله ما أروع الطبيعة. متى سيأتي والديك إلى البيت؟.. سألها.

- غدًا بعد الظهر؛ أما اليوم فكل الدنيا لنا، بيتنا الصيفي منعزل داخل الغابة وسنكون لوحدنا في هذا العالم الجميل.

صعدا هضبة كثيفة بأشجار الصنوبر، ثم انحدرت الطريق، وتراءى لهما منظر رائع سهل منبسط يكسوه العشب، ويليه نهر يقطعه، وهدوء تملؤه الطيور والعصافير بتحليقها وكأنها تستقبل الزائرين.

طريق ضيق على اليمين بين الأشجار، وهنا يقبع البيت الصيفي وادعًا على هضبة صغيرة، وتحته يتراءى السهل والنهر، وتحفه الغابة من كل جوانبه الأخرى، هكذا وسط أشجار الصنوبر. أوقفا السيارة ودخلا البيت...

- الله كم هو رائع؛ قال لها: هنا حقا أفهم معنى أحضان الطبيعة.

البيت مصنوع من الخشب، وكل أثاثه من الخشب الطبيعي، وأمامه «فيراندا» مظللة، تطل مباشرة على النهر.

أدخلا أغراضهما وقامت هي بترتيبها، ثم قاما بإخراج بعض الكراسي وطاولة وضعاها في «الفيراندا».

غيرا ملابسهما؛ فقد ارتدى هو «شورت» وارتدت هي فستانًا خفيفًا، وجلسا يتناولان أقداح البيرة وينظران أمامهما إلى هذا البساط الذي يمتد حتى النهر، حيث يتراءى قارب خشبي مستلق هناك على ضفة النهر.

كانت أشعة الشمس محفزة لهما للسباحة، فانطلقا يجريان نحو النهر، هي تسبقه وهو يلحقها، وقفزت في النهر وقفز وراءها.

- آه.. الماء بارد!

قالها وهو يقترب منها، وقد التصق الفستان الخفيف بما التصق. فلم يتمالك إلا وقد دخلا في عناق تتحرك فيه أيديهما حيثما اتفق.

بعد أن سبحا قليلًا، خرجت من الماء تجري في الحقل الملاصق للنهر يلحقها وهما يضحكان، وسقطت أو تعمدت السقوط على الأرض فوق العشب وسقط هو جانبها أو تعمد السقوط، وأخذا يتمرغان على ذلك العشب الذي لم يكن جافًا ولا هو بالأخضر، بين هذا وذاك وطفقا يطحناه بجسديهما.

بدأت الأيـادي والأرجـل وكل الأطـراف بجسديهما تتحرك متداخلة في بعضها البعض، والشمس ترمي بأشعتها على جسديهما اللذين أصبحا مكشوفين كليًا لوهج الشمس.

كان الهدوء مخيمًا على المكان، وكانت الطيور وحدها تحلق فوقهما تروح وتجيء كأنها تحرسهما، والشمس بدفئها وضوء أشعتها ترسل دفئًا على دفء، حتى بدت قطرات العرق تنساب من هذين الجسدين المستلقيين على هذه الأرض، يحسان بالراحة الكاملة وكأن وخزات الأعشاب تحتهما تعمل مساجًا ليحفزهما على مزيد من العمل.

***

أفاق الباشمهندس على صوت الشيخ عز الدين:

- هل سمعتني يا باشمهندس، لقد سألتك عن ألمانيا؟ .. هل هي مثل بريطانيا؟

- عفوا يا شيخ عز الدين. نعم كل أوروبا هكذا، والطبيعة حقيقة ساحرة تتنوع بين جبال وأنهار وسهول، وهم يحسنون استخدام إمكانياتهم بشكل جيد.. أوروبا يا شيخ عز الدين دول مستقرة وهانئة، وللإنسان قيمة هناك.

عقَّب الشيخ عز الدين قائلًا:

- ربنا يهدينا إلى الطريق المستقيم، نحن لو اتبعنا تعاليم ديننا الحنيف لعشنا في أحسن حال، فالإسلام دين عدل ومساواة بين البشر، ولكن نحن ابتعدنا عن ديننا، وكثير من عاداتنا السيئة ننسبها إلى الدين.

كان علي الدرويش منهمكًا في عملية رفع براد الشاي عاليًا، وهو يسكبه فى اللقامة، ليعمل رغوة الشاي الأخضر الذي كان يعده.

نظر إليه الشيخ عز الدين نظرة إعجاب، وقال له ما شاء الله، شاهيك يا علي له نكهة خاصة وبه بركة.

ابتسم علي الدرويش وقال: أنت يا شيخ عز الدين البركة.

- ما حال الدنيا يا علي؟

ابتسم علي الدرويش، وقال: حي.. كل في فلك يسبحون.

- نعم يا صاحبي .. كل في فلك يسبحون، قال الباشمهندس في نفسه!

***

(9)

بدأ الباشمهندس يقضي معظم وقته بالبيت القديم، فهو المكان الملائم، حيث يأتيه كل من علي الدرويش والشيخ عثمان، ويزورهم بين الحين والآخر بعض المعارف الذين سمعوا بقصة الباشمهندس.

تفاجأ الباشمهندس هذا المساء بقدوم الشيخ عثمان بصحبة رجل ومعه ابنه الصغير؛ استغرب الباشمهندس، فهو لا يعرف الرجل، إلا أن الشيخ عثمان أيقظه من استغرابه بقوله:

- يا شيخ الظل هذا السيد مسعود، جاء بابنه ويريد منك أن ترقيه، هذا ابنه الوحيد وذهب إلى الأطباء دون فائدة، وقد جاءك، فلعل الله يجعل على يديك شفاءه.

صعق الباشمهندس واحتار ماذا سيقول وماذا سيفعل، واجتاحته موجة غضب وحنق داخله على الشيخ عثمان الذي يورطه في أشياء لا يعرفها.

رحب الباشمهندس بالضيف وابنه، واستأذن للخروج قليلًا إلى الجنان، وأشار إلى الشيخ عثمان كي يتبعه، وبقي الضيف وابنه وعلي الدرويش في المربوعة.

- ماذا فعلت يا شيخ عثمان؟ أنت تعرف بأنه لا علاقة لي بهذه الأمور، ولا أعرفها أصلًا.. فكيف تورطني مع هؤلاء الناس؟

طلب الشيخ عثمان من الباشمهندس أن يهدئ نفسه، والموضوع هو فعل خير، وما الضرر إن اعتقد فيه أحدهم وقصده، وطلب منه مجرد رقية؟

- يا شيخ الظل يجب أن تأخد الأمور بالهدوء، وأنت إنسان تعمل الخير طوال عمرك، ولن يكلفك ذلك شيئًا، كل ما في الأمر أن تضع يدك على رأس الصبي وتقرأ ما تيسر، ربما حتى الفاتحة فقط وتدعو له بالشفاء أو تضع إصبعك في كأس ماء وتقرأ بعض الآيات وتدعو ربك من قلبك؛ أنت تعرف هذه الأمور فهي ليست جديدة عليك، فلماذا كل هذا الاستنكار لأناس يقصدونك ويرون فيك البركة.

- سنناقش الأمر فيما بعد يا شيخ عثمان، ولكن كان من الواجب إن سألتني أولًا قبل أن تأتيني بأحد من هؤلاء.

دخلا إلى المربوعة، ووجدا الضيف منسجمًا في حديثه مع علي الدرويش، الذي أبدى تعاطفه مع الرجل وقد دعا له علي الدرويش الله بأن يشفي ابنه، فقد عرف بأنه رجل مسكين وأن هذا ابنه الوحيد.

عندما أخذ كل من الباشمهندس والشيخ عثمان مكانيهما، طلب الشيخ عثمان من علي الدرويش أن يأتي بكأس به قليل من الماء

ويعطيه لشيخ الظل كي يقرأ عليه؛ ابتسم علي الدرويش وغسل كأسًا ووضع فيه قليلًا من الماء وقدمه إلى الباشمهندس ونظر إليه نظرة مشجعة؛ وضع شيخ الظل إصبعه السبابة في الكأس وأخذ يقرأ بعض الآيات ويدعو، وكان واضحًا بأن شيخ الظل في طريقته قد أخذ الأمر بكل الجدية، ويقرأ ويدعو من قلبه، فعلى الرغم من اعتراضه على القيام بعملية الرقية إلا أنه تعاطف مع حال هذا الضيف المسكين.

عندما أكمل رقيته، قدم الكأس إلى الضيف الذي ناوله لابنه وطلب منه أن يشربه؛ شعر الضيف بالراحة وعبر عن امتنانه لشيخ الظل، وقال له:

- يا شيخنا.. ليتك تكمل جميلك، فتقرأ على رأسه ما تيسر وتدعو له، وطلب من ابنه أن يقترب من شيخ الظل.

لم يجد شيخ الظل بدًا من الامتثال، ووضع يده على رأس الطفل وأخذ يقرأ في سره بعض الآيات، ويردد بعض الأدعية، وقال له إن شاء الله بالشفاء.

فرح الضيف كثيرًا واستأذن في الخروج.

بدأ شيخ الظل يعاتب الشيخ عثمان، وعلي الدرويش يسمع ولا يعلق، وقد تحدث الشيخ عثمان باسهاب عن عقيدة الناس في أهل البركة، وأن الرقية هي أمر ليس فيه ما يعيب، بل على العكس إذا كان

الإنسان يستطيع إدخال الطمأنينة في قلوب الناس، فلماذا يرفض تقديم هذه الخدمة؛ وتحدث الشيخ عثمان عن كثير من الحالات التي كان شاهدًا عليها، وكيف فتح الله على هؤلاء الناس، وتحسنت أمورهم بسبب دعاء رجال الله الصالحين.

- قل يا باشمهندس؛ ماذا أضرك الآن بعد أن رقيت ابن هذا الرجل المسكين؟.. ألا تشعر بالراحة وأنك أدخلت في نفسه السعادة والأمل في شفاء ابنه.. ماذا يا شيخ الظل لو جاءك وحده وطرق بابك وطلب منك المساعدة؛ هل ستطرده، هل ترضى فعل ذلك. أنا أعرف إنك لا ترضى، وكما قلت فالأمر ليس فيه إلا الخير؛ ثم يا شيخ الظل نحن لم نقل إنه لا يجب أن يذهب إلى الطبيب، ولكن لا بأس من محاولة المساعدة، فالله أعلم حيث يكون الشفاء وقد يكون على يديك.

نظر شيخ الظل ناحية علي الدرويش مستنجدًا متقصيًا رأيه في الموضوع، فابتسم علي الدرويش ووضع يده على قلبه، وقال يا صاحبي كل شيء هنا وإنما الأعمال بالنيات.

دخل الباشمهندس في حالة من الحيرة؛ فماذا عساه أن يفعل وهذه قد تفتح عليه بابًا، ويأتيه الناس طالبين مساعدته بالرقية، فماذا سيعمل حقًا؟

هل يرد الناس، ويظهر أمامهم بالمتكبر، خاصة أن هؤلاء أغلبهم من الناس الطيبين والبسطاء؟

بعد مضي بضعة أيام أخذت الشائعات تنتشر عن كرامة شيخ الظل، وتجاوزت حتى بلدته وبدأ يتردد عليه كثير من الناس طالبين مساعدته، بعضهم لعلاج مرض معين وبعضهم لفك التابعة وجلب الحظ، وبعضهم أصابه أو أصابها مس من الجن؛ بل أصبحت الكثير من النساء يقصدنه إما لحل مشاكلهن الزوجية أو لفك السحر الذي يتعرضن له، وبعضهن طالبات دعواته لهن بالحصول على زوج مناسب.

وجد شيخ الظل نفسه فى خضم لا يملك له ردًا ولا يستطيع السيطرة عليه، هل يرد الناس ويقفل بيته والناس تأتيه أفواجًا طامعة في بركاته؟

ولم يجد سوى أن يستعين بالشيخ عثمان لمساعدته في ترتيب وتنظيم هذه الأمور واستشارته، فالشيخ عثمان خبير في هذه المواضيع، مارسها كثيرًا صحبة الكثير من المشايخ؛ أما صاحبه علي الدرويش فهو في العادة جانبه ويشعر شيخ الظل في نفسه بأنه هو صاحب البركة الحقيقية إن وجدت بركة، وطلب من صاحبه علي الدرويش أن يلازمه، وقد وافق علي الدرويش على ذلك، شريطة أن يكون موجودًا يساعده إن طلب منه شيئًا ولا يقوم هو بالرقية.

بدأت سمعة شيخ الظل والقصص عن كرامته وعلاجه لكثير من الأمراض المستعصية تنتشر بشكل واسع في كل أنحاء البلاد، وأصبح بعض الناس يأتونه طلبا للبركة، في بعض الأحيان يلحون على شيخ الظل أن يأتي لزيارة أحد البيوت لمعالجة حالة ما.

في أحد هذه الزيارات كانت هناك امرأة في حوالي الأربعين من عمرها، وهي من حي شيخ الظل، يعرفها وتعرفه، وقد قيل بأنها أصيبت بحالة هستيرية، أو ما يقال عليه بالعامية (العون) وكانت متمددة لا تتحرك وفي حالة غير طبيعية؛ أدخلوها لاحدى الحجرات ودخل شيخ الظل ومعه الشيخ عثمان الذي أخذ يحرك المبخرة في الحجرة حتى غطاها دخان البخور كأنه سحابة كثيفة، وكانت هي مستلقية على فراش وشيخ الظل واضع يده على جبهتها يقرأ عليها.

خرج الشيخ عثمان من الغرفة وترك شيخ الظل لوحده مع المرأة، وقفل باب الغرفة ووقف أمامه حتى لا يدخل أحد الغرفة.

كانت يد شيخ الظل موضوعة على جبهة المرأة، وقد بدأ جسمها يتحرك حركة فيها ما فيها، ووجد شيخ الظل يده تتحرك على وجهها وتنساب إلى رقبتها، وتلك الجنية تتماهى مع حركة اليد فاتحة المجال للمزيد من التغلغل لثنايا الجسد الملتهب.

نزلت يد شيخ الظل تنساب ما تحت الرقبة متسللة للنهدين، بدأ الجسد يتلوى قليلًا وانتفضت أطرافه، ويد شيخ الظل تشد وترخي قليلًا، وفجأة مر علي الدرويش بقرب الشيخ عثمان الواقف أمام الغرفة، وصاح بصوت عال:

- حي .. كل في فلك يسبحون!

انتفض الشيخ عثمان وقال:

- يعطيك دعوة.. يعطيك دعوة..

وهي لازمة يقولها الشيخ عثمان عندما يستاء من فعل شخص ما.

أما شيخ الظل فقد جذب يده المتسللة بسرعة، وشعر بتجمد أطرافه، وزادت نبضات قلبه، وشعر بتأنيب الضمير، وابتعد عن المرأة النائمة أمامه؛ أما هي فقد عدلت من وضعها، وضمت فتحة فستانها، وشعرت بالزهو رغم عدم اكتمال المغامرة.

كان شيخ الظل يحاول جمع أنفاسه المتقطعة، ويعود لتوازنه الذي فقده، وأخذ يردد أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ويكررها في نفسه.

عندما عاد إليه بعض هدوءه، صاح على الشيخ عثمان كي يدخل، دخل الشيخ، ولم ينظر إلى شيخ الظل، وقال له لنخرج الآن فلعلها تفيق بعد قليل وتعود إلى حالتها الطبيعية.

أوصى الشيخ عثمان أن يسقوها بعض الماء ويتركوها تستريح قليلًا، وستقوم صحيحة معافاة.

خرج الشيخ عثمان وشيخ الظل، وأوصلتهما السيارة إلى بيت شيخ الظل القديم، وقد ساد الصمت رحلتهما إلى البيت.

عند الوصول نزل شيخ الظل، واستأذن الشيخ عثمان في الذهاب إلى بيته، فالوقت ليل ولديه بعض المشاغل.

دخل شيخ الظل إلى بيته وهو يشعر بتأنيب الضمير، وتغشاه حالة من الكآبة، ودخل إلى المربوعة حيث قال لهم بأنه ينتظر ضيفًا، وبقي في المربوعة لوحده، فقد كان يتحاشى مقابلة أحد من أفراد أسرته.

عندما تأخر الوقت، دخل عليه ابنه وسأله عن الضيف الذي قال بأنه سيأتي، فأخبره شيخ الظل بأنه ربما حصل له ظرف.

دخل شيخ الظل إلى غرفته، وأخبر زوجته إنه يشعر بصداع ويريد أن ينام.

كان شيخ الظل مستلقيًا في فراشه، ولكن أين النوم؟ فهو يفكر في خطأه الجسيم الذي فعله اليوم ويستغفر ربه، وشعر بالندم الشديد على فعلته، وردد في نفسه:

- استغفر الله.. استغفر الله.. حتى أخذه النوم.

في الصباح أفاق شيخ الظل، وقد شعر ببعض التحسن في مزاجه، فقد أخذ ليلة البارحة عدة قرارات تمنع تكرار ما حدث، واعتبر ما حدث امتحانًا من عند الله.

بدأ شيخ الظل في أول أوراده، فقد قرر أن يسبح كل يوم ألف مرة استغفر الله، استغفر الله، استغفر الله؛ وقد اعتبر أن ما حصل كان درسًا له ودعا الله أن يقويه ويجنبه الزلل، وعاهده أن يكون مخلصًا لهؤلاء الذين وثقوا فيه، فليس من طبيعته الغدر، وهو الإنسان الذي دائمًا يتعاطف مع الضعفاء والمساكين.. لا، لا.. إنها غلطة ولعلها خير، وعبرة أفاقته ودعته إلى التقرب من الله واللجوء اليه.

ذهب إلى المربوعة حيث جاءه علي الدرويش، وقد سعد بذلك، فقد خشي أن يزعل منه صديقه علي، فالله أعلم ماذا يكون قد أحس، وإلا لماذا جاء في ذلك الوقت، وصاح:

- حي.. كل في فلك يسبحون؟
- هل ستعمل لنا الشاي يا علي؟

قالها شيخ الظل بتودد وهو ينظر إلى علي، فرحب علي بذلك وأخذ في إعداد عدة الشاي، التي هي دائمًا موجودة في ركن من المربوعة.

جلس شيخ الظل وسأل صاحبه: يا علي إنك تعلم بأنك صاحبي وأنا أحبك في الله، وليس بيننا غير المودة، وعلى استعداد للإجابة على أي سؤال تسألني، وأعدك بأنني لن أخفي عنك شيئًا.. فهل أنت يا علي ستجيبني إن سألتك؟ وهل ستساعدني؟

ابتسم على الدرويش وقال: يا صاحبي قلت لك حتى الصمت لغة، والمشاعر يا صاحبي تتجاوز كل لغة.. ما أملك الجواب عنه سأجيبك، ولكن يا صاحبي حالي الذي تراه لأنني لا أملك اجابات!

- يا صاحبي قلت لك بأنني لست الإنسان الذي ربما تتصوروه؛ أنا انسان عادي، أخطئ كثيرًا، ادع لي يا صاحبي أن يغفر الله لي ذنوبي.

ابتسم علي الدرويش، وقال خير الخطائين التوابون، وضحك وأردف قائلًا:

- ها أنا أرى بيدك السبحة وتستغفر الله.

***

(10)

أصبح شيخ الظل محط اهتمام رجال الدولة والمسؤولين الكبار بالمؤسسات العامة ورؤساء الشركات ورجال الأعمال، كلهم يخطبون وده ويطلبون بركاته.

قويت علاقات الشيخ عثمان بالمسؤولين، فقد أصبحوا يتصلون به باستمرار يطلبون بركات شيخ الظل، وبعضهم يطلب الاجتماع به على انفراد ليحكي له عما يختلج في صدره، وقد كان الشيخ عثمان سعيدًا بتقديم هذه الخدمات، فقد رفعت أسهمه وحسنت من أحواله كثيرًا بسبب العطايا التي يقدمها هؤلاء المسؤولون للشيخ عثمان لقاء خدماته.

الشيخ عثمان رجل لا بد منه!.. الجميع يحتاجه؛ سكان الحي يحتاجونه والحكومة أيضًا تحتاجه، وشيخ الظل الآن يحتاجه فهو يتمتع بعلاقات واسعة ومتشعبة، وعلى الرغم من لوم بعض شباب الحي عليه وتشككهم فيما يعمله بحكم علاقاته الوطيدة مع المسؤولين، وعلى الخصوص مع الحاج سعيد إلا أن الجميع يقر له بأنه قد خدم سكان الحي كثيرًا ولا يبخل عليهم أبدًا في تقديم المساعدة.

خدماته لسكان الحي غطت مجالات كثيرة، فمن توفير بعض السلع التي يصعب الحصول عليها، إلى جانب لجوء الكثير من العائلات إليه عند مناسبات الأعراس للحصول على ما يلزم من احتياجات من منشأة الذهب، إلى توظيف أبناء الحي والتوسط لهم للإيفاد للدراسة بالخارج؛ هم أيضًا يلجؤون إليه لحل السحر وفك المربوط وإخراج الجن عندما يمس أحدا منهم؛ حتى الشيخ عز الدين نفسه يعترف بأن فضائل الشيخ عثمان عليه لا تحصى، بل ينسب إليه نجاحه في التزام الحياد، حيث يغطي عليه الشيخ عثمان دائمًا وينقل صورة طيبة عنه للمسؤولين المعنيين الذين يستفسرون أحيانًا عن الشيخ عز الدين.

رجل من الصعب وصفه ووضعه في خانة معينة، فهو يتميز بخصائص متعددة، وله خبرات متنوعة في الحياة، أعطته أفقًا أوسع في كيفية التعامل مع الآخرين.

درس بزاوية بوراوي حيث حفظ القرآن ودرس في المعهد الدينيي، ولازم الكثير من المشايخ وكان يحضر دروسهم بالمساجد.

في أيام شبابه كانت له شلة من الأصدقاء تتنوع في تركيبتها، منهم حميد الجرماني، الشاب الذي كان يتميز بالخروج عن عادات المجتمع ويشرب الكحول علنًا ويهوى الفن والغناء؛ ومنهم جمعة

أبوعجيلة شاب يتصف بروح النكتة ومعروف بتعليقاته الفكاهية على أغلب سكان الحي، حيث يعطي أوصافًا هزلية لهم ويختلق النكات عن مواقفهم.

كانت هذه الشلة من الشباب لها جلساتها الخاصة التي يتسامرون فيها ويقضون الليل في سهرات يشربون فيها الخمر، الذي يتولى إحضاره حميد الجرماني من بار منقاتا؛ كانت جلساتهم عادة تبدأ بعد المغرب قليلًا وتمضي حتى الفجر، لكل اختصاصه؛ الشيخ عثمان كان يتولى عملية الشواء، وجمعة أبوعجيلة يتولى تدوير الكأس حيث يسكب بعض النبيذ في كأس صغيرة ويوزعها بالدور وفق توقيت يراه مناسبًا، حتى تكتمل السهرة، ويلقي بين الحين والآخر النكت التي في أغلب الأحيان تتناول مواقف عن سكان الحي.

أما حميد الجرماني، فيطربهم بأغانيه التي يتقنها، حيث يتنقل ما بين أغاني السمر والكأس الشعبية، وبعض أغاني عبد الحليم حافظ التي يتقن أداءها.

كبروا وكل أخذ طريقه، ولكن ظلت علاقة الود تربطهم، ولو أن لكل منهم حياته المختلفة.

الشيخ عثمان يعمل بالمعهد الديني، ولكن مركزه في الحقيقة أكبر من وظيفته، فهو يعد من مشائخ الحي وله علاقات كبيرة بالزوايا الصوفية وبمشايخها، وهو دائم الانتقال بين زواياها المختلفة فى كل أرجاء ليبيا، من الشرق إلى الجنوب إلى الغرب، بفضل هذه العلاقات أصبحت له صلات وثيقة بالمسؤولين وأهمهم الحاج سعيد، وقد استفاد كثيرًا من هذه العلاقات في تحسين وضعه، ولكنه باعتراف الجميع أفاد بها أيضًا سكان حيه، فلم يبخل في التوسط لهم، كلما لزم الأمر.

المسؤولون أيضًا استفادوا كثيرًا من خدمات الشيخ عثمان، وكثيرًا ما يلجؤون إليه للإستفسار عن بعض الأمور، وكان بالنسبة لهم أيضًا مثل الطبيب النفساني، فكثير منهم يبث له شكواه وبعض خصوصياته، ويطلبون منه المساعدة لدى رجال الله وأهل البركة الذين يعرفهم؛ كثير من المسؤولين يلجأ إليه لإبعاد الحسد، ولحل السحر الذي يصيبهم، أو يصيب أحيانًا بعض أفراد أسرهم.

سيأتي الشيخ عثمان اليوم بخبر مفرح إلى شيخ الظل، فقد تحدث مع الحاج سعيد وبعض المسؤولين وبعض رجال الأعمال الذين أبدوا استعدادهم لاستكمال الجامع الذي أنشئ بالقرب من جنان شيخ الظل، وقد وعدوا ببناء مرافق الجامع وتأثيثها ومنها الزاوية.

بل وعدوه بأنهم سيكلفون استكمال المبنى لشركة حتى تنجزه في أقرب وقت.

دخل الشيخ عثمان إلى مربوعة شيخ الظل الذي كان معه علي الدرويش جالسين يتحدثان، فأخذ مكانه، تعلو وجهه ابتسامة عريضة؛ سأله شيخ الظل:

- يبدو إنك سعيد يا شيخ عثمان اليوم؛ إن شاء الله خيرًا، بشرنا ماذا حصل لرسم هذه الابتسامة العريضة على وجهك.

- صدقت يا شيخ الظل، فعلًا أنا سعيد ومعي بشارة.

- ما هي يا شيخ عثمان..؟ سأل شيخ الظل.

في البداية قال الشيخ عثمان: الحاج سعيد وكل الجماعة يبلغونك السلام، ويطلبون منك ألا تنساهم بدعائك.. لقد تحدث مع الحاج سعيد ومجموعة من المسؤولين، وحتى بعض رجال الأعمال بخصوص استكمال بناء المسجد الذي هو قريب من هنا، وقد وافقوا على المساعدة.

- بارك الله فيك يا شيخ عثمان.. قال شيخ الظل.

- ما زال يا شيخ الظل.. لقد وافقوا على استكمال مرافق الجامع أيضًا والزاوية المرفقة وتأثيثها، حتى تستطيع استخدامها يا شيخ الظل وتكون زاويتك التي يأتيك فيها الزوار.

تفاجأ شيخ الظل ثانية من الشيخ عثمان وترتيباته التي لاعلم له بها، التي تتعلق به، وقال للشيخ عثمان:

- يا شيخ.. أية زاوية لي.. أنا كما قلت لك انسان عادي ولست شيخًا.. يهديك الله.

- يا شيخ الظل لا بد أن تفهم وتستوعب وضعك الجديد؛ أنت انسان لست عاديًا، وها أنت ترى الناس يأتونك من كل مكان طالبين البركة؛ لا يمكن أن تستمر هكذا في مربوعتك، وعدد زوارك سيزداد ويحتاجون لخدمات.

الزاوية ستكون مجهزة بحمامات للنساء، وأخرى للرجال، ومطبخ كبير لإعداد الطعام عند اللزوم، وستكون بها غرفتين كبيرتين إحداهما لإيواء الرجال، والأخرى لإيواء النساء، وستتوفر بالزاوية الأفرشة وكل المعدات والأواني اللازمة للطبخ؛ الأمور يا شيخ الظل ليست هكذا، وأنت لا تستطيع استقبال الناس هنا في جنانك وفي بيتك هذا، وأنا أعلم أن كثيرًا من الناس يزمعون زيارتك حتى من منطقة الجنوب، فقد التقيت يوم أمس بالشيخ مسعود أحد مشائخ الصوفية هناك وأخبرني بأنهم يرتبون زيارة لك في المدة القادمة؛ لماذا أنت هكذا يا شيخ الظل تعاند وترفض مثل عادتك في السابق؛ يجب أن تدرك يا شيخ الظل بأنك أنت لست أنت؛ أنت لست كما

كنت أيام الباشمهندس، أنت شيخ الظل الآن، وللناس عليك حق، فلا يجب أن تنكر ذلك ولا أن تحرمهم من زيارتك وأخذ البركة.

أصاب الباشمهندس الذهول، وهو يستمع إلى كلام الشيخ عثمان، وقال في نفسه هكذا هو الحال، أنا لست أنا.

صمت الباشمهندس، وغرق في تفكير عميق، تتملكه الحيرة فيما وصل إليه من حال، فها هو قد فقد السيطرة، وأصبح أمره ليس بيده. لقد شعر بأنه فقد حريته واستقلاله، فماذا يعمل حتى يعود إلى سابق حاله؟

أسئلة كثيرة كانت تراود شيخ الظل وتقفز أمامه، وهو ينظر إلى الشيخ عثمان ولا ينظر اليه.

حاول أن يستثير علي الدرويش ولكنه لم يتدخل في النقاش، وبدلًا عن ذلك قال لهم ما رأيكم أن نعمل الشاي، فقال له الشيخ عثمان بارك الله فيك يا علي شايك خير وبركة.

بدأ علي الدرويش في إعداد الشاي، وأخذ بصوت خفيض ينشد:

يا جمال الوجود

طاب فيك الشهود

والبرايا رقود

إن عيني تراك

ما لقلبي سواك

ذاب كلي عليك

وانتسابي إليك

والورى في يديك

والشجي في هواك

زائد الارتباك

- الله الله يا علي.. ما شاء الله على هذا الصوت العذب، بالله ارفع صوتك واسمعنا يا علي.

قالها الشيخ عثمان وهو يردد بصوت خفيض مع علي الدرويش:

يا جمال الوجود

طاب فيك الشهود

- تعرف يا شيخ الظل؛ منذ يومين حضرت حضرة الزاوية البرهانية في سيدي عبد الجليل، وقد كانوا ينشدون هذه القصيدة لسيدنا النابلسي.

- ما أروعك يا علي.. والله إن زاويتك يا شيخ الظل ستكون محظوظة، حيث إن علي الدرويش صاحبك. أقول وبكل صدق

طوال حياتي، وعلى كثر ما سمعت من مدائح وانشاد، إلا أنني لم أسمع صوتًا نقيًا رائعًا مثل صوت علي الدرويش.

شيخ الظل هائم، فرغم انسجامه مع إنشاد صاحبه علي الدرويش، إلا أنه لم يستوعب كيف إنه أصبح دون إرادته شيخًا صوفيًا يأتيه القريب والبعيد؟

قال في نفسه مستدركًا: شيخ وفق رأي هؤلاء الناس الذين يترددون عليه وليس باقراره هو.. إنه القدر وياله من قدر. وتساءل في نفسه: إلى أين سينتهي هذا الأمر يا رب؟

***

(11)

جلس شيخ الظل في المربوعة هائمًا حائرًا من الحال الذي صار فيه.

ما العمل؟.. كيف له أن يخرج من هذا الوضع الذي ما يزال في بعض الأحيان يخيل إليه بأنه حلم سينتهي عندما يفيق.

- ولكن أنى له أن يفيق؟ فالأمر مستمر وكل يوم يمضي يزداد رسوخًا وتوكيدًا.

دخلت أم فاطمة وعلى وجهها ابتسامة، وقالت لزوجها:

- مالي أراك هائمًا؟.. ما رأيك أن أعمل لك فنجانًا من القهوة، وأعمل لك تلك الفطائر التي تحبها مع العسل؟

- هل تذكر كم كنا نعملها في بداية زواجنا، وقد كنت مغرمًا بها، وكنت دائما تفضلها مع قهوة المساء؟

- نعم يا أم فاطمة، أتذكر كانت أيامًا جميلة.

- واليوم أليست جميلة؟ تساءلت أم فاطمة

- لا أقصد ذلك يا أم فاطمة؛ أقصد كانت حياتنا بسيطة، أما الآن فانظري أين أنا، وماذا حل بي؟ ها أنت ترين الناس كيف يأتونني

ويزدادون كل يوم مقتنعين بأنني البركة، وتصوري يا أم فاطمة كيف أن بعضهم يعدني وليًا من أولياء الله؟

- أنت رجل تحب الخير وسريرتك طيبة والجميع يشهد لك بذلك... إن الله يعلم ما في القلوب. ما هي المشكلة إن أعتقد فيك الناس البركة وجاؤوك يطلبون الرقية والشفاء والتوفيق من عند الله.

- المشكلة يا أم فاطمة إن الموضوع بدأ يكبر وهم يعدون الزاوية الآن بالمسجد القريب منا، الذي قرب إنجاز بنائه، ويريدونني أن أكون هناك لاستقبال الناس.

- أتركها على الله يا عزيزي، وأضافت بضحكة خفيفة: سأذهب وأعد لك قهوتك والفطائر وأعود إليك.

- يا له من قدر.. قال شيخ الظل: كان يمكن أن تكون الأمور في غير هذا الإتجاه. لولا تلك الليلة ويا لها من ليلة!

***

كانت الحياة قبلها عادية وتسير في غير اتجاه، وكانت علاقته بصاحبته جوليا في أوج وثوقها. كانا يقضيان بعض العطلات في زيارة أبويها في مدينة ايرلنجن، وكان كلما وصل هناك يستقبله أبوها السيد هانز مرحبًا قائلًا له أهلا يا رفيق- يقول ذلك مازحًا.

كان السيد هانز مسؤول الحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني في بلدته، وكان يتميز بالنشاط والحماس في عمله الحزبي. ويفتخر دائمًا بنضال حزبه ودوره الكبير في تطوير برامج الرعاية الاجتماعية والصحية، وفي تهذيب الرأسمالية في بلاده، حيث ثم ربط الحريات والديمقراطية واقتصاد السوق مع المسؤولية الاجتماعية.

السيد هانز متابع للسياسة الدولية وللحركة الاشتراكية في العالم، وكثيرًا ما يشارك فى مؤتمرات الاشتراكية الدولية، وقد مكنته هذه المشاركة من التعرف على بعض قيادي الأحزاب الاشتراكية في دول العالم الثالث.

قال له السيد هانز ذات مرة: مشكلتكم إنه ليس لديكم أحزاب حقيقية؛ الأحزاب ليست نخبة تنظر وتضع تصوراتها وأحلامها.. العمل الحزبي هو نضال وسط الجماهير، ولا معنى لحزب ليست له قاعدة جماهيرية منظمة تمارس الفعل السياسي على الأرض. العمل السياسي الحقيقي يحتاج إلى نفس طويل، وصفة الأحزاب في العالم الثالث هي الاهتمام بالوصول إلى السلطة بسرعة قبل حتى أن تكون لها قاعدة شعبية، تميلون إلى أساليب الانقلاب بدل البناء المؤسساتي.

ويعزو السيد هانس أحيانًا هذا الإخفاق الذي تعيشه دول العالم الثالث والبلدان العربية على وجه الخصوص، نتيجة الشعور بالعجز والإحباط، وهذا ما حصل لنا نحن أيضًا في ألمانيا قبل الحرب العالمية الثانية.

لقد خسرنا الحرب العالمية الأولى، واقتطعت أجزاء من أراضينا، وتدهور الاقتصاد، وكل ذلك أتاح للحزب النازي ولهتلر بتعبئة الناس من أجل محو العار ورد الاعتبار لألمانيا، والنتيجة كانت كارثية، حيث دمرت بلادنا في الحرب العالمية الثانية. وهذا شبيه بما يحصل عندكم، بدلًا من بناء مؤسسات حزبية قوية تركزون على الزعيم المنقذ، والنتائج عادة لمثل هكذا توجه كارثية، كما حصل عندنا في الثلاثينات.

كانت الحياة تسير وفق نمط اعتيادي، وكان هو وجوليا يعيشان حياة مستقرة، يذهبان إلى الجامعة ويقضيان عطلة نهاية الأسبوع في أغلب الأحيان معًا، يذهبان إلى السينما أو إلى المسرح أو يمارسان الرياضة.

كل الأمور كانت تمضي تمام حتى تلك الليلة، ويا لها من ليلة!

قرر هو وصديقته جوليا الذهاب مساء ذلك السبت إلى نادي الجاز، حيث ستعزف فرقة مشهورة هناك موسيقى الجاز.

عند الموعد ذهبا وتناولا عشاءهما وأخذ يتسامران وهما يستمتعان بعزف الفرقة لمشاهير فناني الجاز العالميين. وبينما هما جالسين منسجمين بالاستماع إلى الموسيقى، جاء رجل أسمر اللون وطلب جوليا للرقص.

قامت معه إلى الحلبة وأخذا يرقصان والباشمهندس يراقبهما بنظراته؛ بدأ الغضب يتملكه فقد كان هذا الشاب يهز جسمه بطريقة متناغمة مع الموسيقى، وكأنه آلة من آلات الفرقة ويلتصق بجوليا التصاقا مريبًا، وقد لاحظ بأنها قد انسجمت مع العزف وتماهت مع هذا الشاب، تستلقي عليه وتتحرك بشكل فيه ما فيه.

كانت الدماء تغلي في عروقه وأخذته الغيرة، فكيف له أن يقبل لصديقته أن تكون هكذا متماهية مع هذا الشاب في حركاته الراقصة وتلتصق به كل هذا الالتصاق؟

عندما عادت إلى الطاولة صحبة مرافقها في الرقص الذي أوصلها وشكرها، وجدته متغير الحال ساخطًا، وقد طلب منها أن يخرجا من المطعم؛ تساءلت لماذا والموسيقى رائعة والوقت ما يزال باكرًا، لكنه ألح عليها بضرورة العودة إلى البيت، فخرجا سويًا وأخذا سيارة أجرة إلى شقتهما.

طوال الطريق كان صامتًا، وأحست بأنه متضايق وغاضب.. ما إن دخلا إلى الشقة حتى أخذ يصيح عليها: كيف لها أن تفعل ما فعلت؟

- ماذا فعلت؟ .. قالت جوليا مستنكرة!

- ماذا فعلت عندما كنت ترقصين معه؟ كنت أشاهدكما وكنتِ ملتصقة به، وكان هو يمد يده هنا وهناك، بل أكثر كنت ألاحظ رجله تتداخل ما بين رجليك وتقولين ماذا فعلت؟

- ماذا يعني ذلك؟ أنت تتخيل، كنا نرقص على الموسيقى ولا وجود لما تقول إلا في خيالك.

- هل تريدينني أن أكون سعيدًا وأنا أشاهد ذلك، وضرب بيده بقوة على الطاولة؟

كان منفعلًا جدًا وقبض على ذراعها بقوة وهزها: ماذا تحسبينني؟

- صاحت به ماذا تفعل؟

- ماذا تقولين عن هذا؟ وأردف هائجًا: كان من المفروض إنك اعتذرت عن الرقص معه.

- نحن هنا لا نرى شيئًا في ذلك، وهذا أمر اعتيادي عندنا.. قالت جوليا.

- وهذا ليس أمرًا اعتياديًا عندنا نحن، وأنا لا أرضى بذلك.. أجابها

- ومن تظن نفسك حتى تقول لي ماذا أفعل، وماذا لا أفعل؟ أنت لا تملكني وأنا حرة ولست ملكًا لك لتفرض علي ما تريد؟

- أنا لا يعجبني هذا، ولا يمكن أن أعيش مع واحدة لا أثق فيها.. قالها بغضب.

صعقت جوليا من كلامه هذا، وقالت له بغضب:

- ماذا تقول؟ من تظن نفسك؟ هذا بيتي وإذا لا يعجبك فبامكانك أن ترحل.

- بيتك؟ .. تهددني؟

ودخل إلى المطبخ، وفتح درج أحد الدواليب، وأخرج قنينة نبيذ فتحها وسكب كأسًا وجلس على طاولة المطبخ ماسكًا كأس النبيذ في يده المرتعشة، ويردد بيتك بيتك!

استدركت خطأها.. فهي تعرف حساسيته، وها هي قد آذته في شيء يراه يمس كرامته. حاولت أن تخفف الوطء فاعتذرت عما قالت، وإنها لا تقصد ما قالت، ولكنه صعقها بقوله إنه لا يثق فيها.

- تعتذرين عن ماذا.. قال لها، واستمر في جلسته صحبة كأس النبيذ.

جلست وأخذت قليلًا من النبيذ في محاولة لتلطيف الجو، ولكنه كان في مزاج بعيدًا عنها، ولم تكن له الرغبة في الحديث معها.

أخذ يتمتم بالعربية: اليوم خمر، وغدًا أمر!

سألته: ماذا يقول؟

فترجم لها ما قال، فقالت أنت سكران، وخير لك أن تذهب وتنام، وغدًا نتحدث.

قال لها: بل الآن صحوت!

ذهبت جوليا إلى النوم، أما هو فقد قضى الليلة يشرب النبيذ، ويدور في رأسه ذلك المشهد بنادي الجاز، وكلماتها هذا بيتي.

نعم نحن مختلفون، هكذا ظل يحدث نفسه، وذهب إلى أبعد من ذلك، كيف له أن يرتبط بها ويكون أسرة؟ وما مصير أبنائه عند حدوث خلاف بينهما؟ لا بد أن يعمل مراجعات تصحيحية! لا بد أن يعيد النظر في مسار حياته فهو يسير في الطريق الخطأ.

وعادت به الذكريات إلى بلدته وإلى والده ووالدته وأصحابه وعلى الخصوص علي الدرويش.. شريط سريع يمر أمامه عن حياته البسيطة التي كان يعيشها.

نعم إن الأمر ليس سهلًا، وأخذه الحنين إلى بلدته، ونزلت بعض الدموع من عينيه وهو يتذكر وصية والده قبل سفره إلى الدراسة في ألمانيا:

- أوصيك يا ابني بتقوى الله في السر والعلانية.

لا.. لا، إن مكانه الصحيح هناك بين أهله وفي بلدته، فهو يفهمهم وهم يفهمونه، حتى إن كان هناك اختلاف في النظر إلى الأمور فليس هناك على أية حال صراع حضاري سيعيشه هناك!

***

دخلت أم فاطمة المربوعة حاملة صفرة القهوة والفطائر، ولم يشعر بدخولها إلا عندما وضعت الصفرة أمامه؛ عدل من جلسته ونظر إليها وقال لها:

- أنت يا أم فاطمة رائعة، وأنا سعيد بأنك زوجتي.. ليس هناك امرأة مثلك في رقتها وجمالها.

استغربت أم فاطمة وتساءلت في نفسها عن سر تعليقه هذا، ولكن لم تشأ أن تسأله، فقد أسعدها بأنه يحمل لها نفس المشاعر التي تحملها نحوه.

لقد عاشا كل هذه السنين لم يعكر صفو حياتهما أي خلاف جدي، بل كان كل منهما يفهم الآخر بالإشارة، وحتى بدون حديث.

جلست أم فاطمة بجانبه يتناولان القهوة سويًا ويتجاذبان أطراف الحديث. لقد شعرا بأنهما أقرب ما يكونان لبعضهما البعض بعد

هذه الحادثة، بل بعثت فيهما تلك الروح التي كانا يعيشانها عند بداية زواجهما.

الحمد لله قال في نفسه، كل شيء على ما يرام بالنسبة لحياته العائلية، وهذه نعمة، لو لم يشغلها هذا الطارئ الجديد الذي حصل له والذي لا يعرف إلى أين سيوصله، فهو يحس في داخله برهبة لما يحمله المجهول!

***

(12)

استكمل بناء الجامع وملحقاته بما في ذلك الزاوية، وقد جهزت بكل ما يلزم، وكان الشيخ عثمان هو المسؤول عن عملية التجهيز والإتصال بالداعمين.

والحقيقة كان هناك حماس كبير من كل المسؤولين، وبعض رجال الأعمال في توفير كل المتطلبات، بل وعدوا باستمرار تقديم الدعم للزاوية وتوفير كل احتياجاتها وما يتطلبه الأمر لتسييرها.

كان الشيخ عثمان سعيدًا، فقد أصبح دوره مركزيًا، وكان يسر لنفسه بأن الزاوية ترتكز على ثلاثة أعمدة.. شيخ الظل، وعلي الدرويش، والشيخ عثمان، ومن المهم أن يبقى هذا الثلاثي موحدًا.

أقيم يوم افتتاح الجامع احتفال كبير حضره إلى جانب سكان الحي بعض الضيوف الذين دعاهم الشيخ عثمان من شيوخ بعض الزوايا الصوفية القريبة، وحضره بعض المسؤولين، كما قامت الأوقاف بتعيين إمام ومؤذن وقيم للجامع من سكان الحي، ومن الذين زكاهم الشيخ عثمان، أما صلاة الجمعة فقد أقنع الشيخ عثمان الشيخ عز الدين بأن يتولى أمرها.

لقد أضاف الجامع وملحقاته للحي خدمة جليلة، فأصبح لسكان الحي مكان يستعملونه عند مناسباتهم الاجتماعية، حيث تتوفر به كل المرافق اللازمة، وقد رفع ذلك من تقدير الكثيرين للشيخ عثمان وجهوده لخدمة الحي.

استطاع الشيخ عثمان اقناع شيخ الظل بأن ينتقل إلى الزاوية لاستقبال الزوار، وللقيام بدوره هناك، وشجعه على ذلك إشارة الشيخ عثمان له بأنه بهذه الطريقة سيحتفظ بخصوصيته في بيته، وبإمكانه أن يأخذ حريته أكثر وليس ملزمًا بالتواجد دائما بالزاوية.

بعد مضي فترة وجيزة اقترح الشيخ عثمان على شيخ الظل أن يعقد مجلسًا للذكر كل ليلة اثنين، لما ليوم الإثنين من فضل؛ تردد شيخ الظل فهو لا يعرف ماذا سيتناول الذكر من تسابيح؟

استشف الشيخ عثمان حيرة شيخ الظل، فقال له:

- المهم أن نكون أنت وأنا وعلي الدرويش جالسين على رأس الحلقة، أقوم أنا بقيادة حلقة الذكر، فلا تشغل بالك بها، إنها تسابيح أعرفها، وعند الانتهاء تعطي أنت الفاتحة. بعد ذلك نبدأ في المدائح، ويتولى علي الدرويش ذلك ونردد وراءه. أترك موضع حلقة الذكر لي يا شيخ الظل وتتيسر الأمور، المهم أن تقنع علي الدرويش بقيادة

المدائح، وهو ما شاء الله يحفظ ما لم يحفظه أحد مثله. يا شيخ الظل، مجالس الذكر هي مجالس خير وبركة، وتحفها الملائكة، ألا بذكر الله تطمئن القلوب.

وافق شيخ الظل على ذلك على أن يتولى الشيخ عثمان ترتيب كل الأمور، وهو من جانبه سيخبر علي الدرويش كي يقود المدائح النبوية والإنشاد.

قام الشيخ عثمان بالتحضير لجلسة الذكر، ودعا بعض أصحابه من المشائخ، كما رتب بعض المصروفات اللازمة التي قدمها فاعلو الخير، حيث توفرت بالزاوية مستلزمات الشاي والقهوة والمياه المعلبة وغيرها من اللوازم، وحدد موعد أول اثنين لإقامة حلقة الذكر، وبالطبع بالتنسيق مع شيخ الظل.

مساء ذلك الإثنين، وبعد صلاة المغرب عقدت أول حلقة للذكر، وعلى الرغم من أن شيخ الظل كان متخوفًا نوعًا ما، إلا أنها كانت أكثر من رائعة؛ حضر حلقة الذكر حوالي ثلاثون شخصًا، وكما هو مخطط قام الشيخ عثمان بدوره على خير ما يجب، فهو خبير في هذه الشؤون، أما شيخ الظل فقد جهز نفسه، حيث حفظ دعاءً مناسبًا، أما علي الدرويش فقد أبدع في إنشاده، بشكل جعل الحاضرين يتمنون

استمرار جلسة الذكر، لولا موعد صلاة العشاء، وقد وعدوا بملازمة الجلسات كل اثنين.

شعر شيخ الظل بالإرتياح بأن كل شيء على ما يرام، والتقى بعد صلاة العشاء بالشيخ عثمان وعلي الدرويش، وقد كان الإرتياح باد عليهم جميعًا، واتفقوا على الاستمرار في الحلقات بشكل مستمر كل يوم اثنين.

انتشرت الأخبار في الحي بأن هناك مجلس ذكر يحضره شيخ الظل كل يوم اثنين، وأن علي الدرويش يقوم بالإنشاد، فازداد عدد المريدين لهذا المجلس، بل أصبح كثير من المسؤولين وبعض رجال الأعمال من المواظبين على حضوره، فهم يشعرون بالراحة والسكينة في أجواء إيمانية تتخللها المدائح النبوية، ويعطيها البخور جاذبية خاصة.

أصبح الشيخ عثمان بمثابة المدير التنفيذي، يرتب كل الأمور اللوجستية ويوزع الأدوار على بعض الشباب الذين أصبحوا من المريدين، ويكلفهم القيام ببعض الخدمات.

أصبح شيخ الظل شيخًا مقيمًا في الزاوية، يأتيه الزوار ويطلبون بركته، واستوعب بسرعة متطلبات المشيخة من حفظ الأدعية

وكيفية الرقية، بل وحتى أدعية الذكر المختلفة والتسابيح التي تعتمدها بعض الفرق الصوفية، خاصة العيساوية التي تولى الشيخ عثمان نقلها تدريجيًا إلى شيخ الظل، حيث يعد الشيخ عثمان أحد مشائخ العيساوية.

تأقلم مع وضعه الجديد وبدأ في التفكير كيف له أن يجعل من جلسات الذكر أكثر إيجابية، وكيف يؤثر في المريدين الشباب بشكل إيجابي ويبعث فيهم روح الفضيلة وانكار الذات وحب الناس حقًا، فلا يمكن للإنسان أن يدعي حب الله إذا لم يكن يحب الناس. بدأ أيضًا في استدعاء كل قراءاته عن الصوفية ومشائخها محاولًا التركيز على الجوانب الإنسانية والحكمة الموجودة في التراث الصوفي.

أصبحت الزاوية وما تتمتع به من مساحة ورواق داخلها مثل النادي الاجتماعي، حيث يلتقي فيها الكثير من سكان الحي على اختلاف مشاربهم.

أحد هؤلاء حميد الجرماني، الذي كان صديقًا للشيخ عثمان أيام شبابه، يتردد عليها ويستمتع كثيرًا بإنشاد علي الدرويش، فهو من المحبين للفن، بل كان يحسن أداء الغناء.

حميد الجرماني شخصية مميزة في الحي، فعندما كان شابًا رغم ما كان عنده من نزق إلا أنه كان ذكيًا؛ درس الفلسفة بجامعة بنغازي وتخرج منها بتفوق وعمل معيدًا بالجامعة، ثم أوفد للدراسات العليا بأمريكا؛ تحصل على الماجستير وبدأ في دراسة الدكتوراة، ولكن شيئًا ما حصل له واختلطت عليه الأمور وعاد إلى ليبيا؛ ولا أحد يعرف السبب في تغيره وحالة الشرود التي أصابته؛ البعض يقول إنه استعمل نوعًا من المخدرات أدت به إلى فقدان عقله، والبعض يؤكد بأن له علاقة بالجن، بل يقولون إنه متزوج من جنية، وقد سمعه البعض يحدثها، بل هناك من يزعم أن لديه أطفالًا منها.

تعود سكان الحي على حميد الجرماني بأسلوبه الصريح في انتقادهم، دائمًا يتحدث عن التخلف، وفي بعض الأحيان يصاب بحالة هستيريا من الضحك وهو يقول لهم هل تعرفون في أي عصر أنتم تعيشون؟.. أنتم تعيشون فيما قبل العصر، ويأخذ في الضحك.

تعود سكان الحي على تصرفاته، فهو يعد ركنًا من أركان الحي، يحاولون مساعدته.

كان ذات يوم يدخن سيجارته متكئًا على حائط، فمر به الشيخ عثمان وقال له:

- كيف الأخبار يا حميد؟

أجابه حميد الجرماني مشغول يا شيخ عثمان؟

- كيف أخبار المدام؟.. هل هي جميلة؟

- ماذا تقصد يا شيخ عثمان؟.. أنت تتعدى على من لا تقدر عليه؟.. هل تريدني أن أخبر أحد إخوتها ليأتيك ويعلمك ماذا يعني أن تتحدث عن أخته؟

خاف الشيخ عثمان، وقال أنت تعرف بأنني صاحبك وأمزح معك فقط.

استغل حميد الجرماني خوف الشيخ واعتقاده بأنه متزوج من جنية، فاستغل الفرصة وبدأ يزرع الخوف في نفس الشيخ عثمان بأن إخوتها جبارين وسوف يعملون له عملًا لا يخطر له على بال؟

اقترب حميد الجرماني من الشيخ عثمان وأسرّ في أذنه عما يمكن أن يفعله أخوها الكبير!.. وأخذ في الضحك بشكل هستيري.

أصاب الفزع الشيخ عثمان حقًا، وطلب من الجرمانى ألا يخبرهم وله ما يريد.

أجابه حميد الجرماني: والله يا شيخ حل هذه المشكلة يكمن في أن تأتينى بستيكة سجائر سبورت كل أسبوع؟

وعده الشيخ عثمان بتوفير ذلك وانصرف عنه، وهو فعلًا خائف من أصهار حميد الجرماني غير الموجودين.

زوار الزاوية متنوعون لتنوع سكان الحي، بل حتى من أحياء أخرى أصبحوا يترددون على الزاوية.

أحد هؤلاء الدكتور عبدالله، وهو من سكان أحد الأحياء القريبة درس الطب في بريطانيا، فهو طبيب متخصص ومعروف له مركزه وصلاته بالحكومة، لديه مناوبة في القيادة، كما أن له علاقة بالمسؤولين، علاقته جيدة مع الشيخ عثمان ويعتبره صاحبه وكل منهما يساند الآخر وكثيرًا ما يلتقيان في مناسبات المسؤولين الكبار الاجتماعية.

الدكتور عبدالله شخص يحب المزاح، ودائمًا عندما يلتقي بالشيخ عثمان يمازحه، والشيخ عثمان يستعين بالدكتور عبدالله عندما يحتاج لمساعدة في العلاج، وقد شكا له وضعه.. فالشيخ عثمان لديه الرغبة ولكن ليست لديه القدرة.. وقد وفر له الدكتور عبدالله بعد أن كشف عليه حبوب «الفياجرا» التي يطلق عليها الشيخ عثمان حبة البركة!

الآن عندما التقاه بالزاوية، قال الدكتور عبدالله للشيخ عثمان:

- عليك أن تختار يا شيخ عثمان؟.. حياتك أو حبة البركة، فقلبك لا يحتمل كثيرًا.

فزع الشيخ عثمان، وقال له: يا دكتور دعك من هذا المزاح.. أريد قلبي وأريد حبة البركة، ودبر يا دكتور، وأخذا يضحكان.

بدأت الحركة تدب حول الزاوية، وأصبحت مركز استقطاب لعدد كبير من الشباب، بغض النظر عن اهتمامهم بموضوع الزاوية، فقد وجدوا فيها مكانًا ملائمًا للالتقاء والجلوس للمسامرة، خاصة إنها تتوافر على خدمات جيدة من حيث المرافق الصحية، ويتوافر بها الشاي دائمًا.

***

(13)

جاء الشيخ عثمان إلى شيخ الظل وأخبره بأن بعض مشايخ الزوايا الصوفية اتصلوا به ويريدون ترتيب زيارة، وعمل مولد هنا عندنا بالزاوية تشارك فيه أكثر من سبع زوايا صوفية من طرابلس وضواحيها؛ علينا ترتيب الأمر والاستعداد.

احتار شيخ الظل فيما سيقول وماذا يعني إقامة مولد هنا؟ ومن الذي سيقوم بإعداد الطعام لكل هؤلاء ومن يخدمهم وكيف سيتدبرون المصاريف؟

أسئلة كثيرة تدور في رأس شيخ الظل، زد عليها ماذا يعني ذلك بالنسبة له.. وماذا سيكون دوره.. وما هو المطلوب منه؟

- يا شيخ الظل- قال الشيخ عثمان- هؤلاء يريدون أخذ البركة منك وأن يعتمدوا مشيختك واعتبارك أحد المشايخ المعتبرين؛ لقد حدثوني بأنهم درسوا هذا الأمر واتفقوا على ذلك!

ومن ناحية الترتيبات فلا تشغل فكرك، فكل الأمور متيسرة، سيكون إن شاء الله من أكبر الموالد وسيحضره عدد كبير من الناس

وستكون هناك حضاري عديدة. العيساوية، والعروسية، والبرهانية، والجيلانية. كلهم سيكونون حاضرين بإذن الله.

واستمر الشيخ عثمان في حديثه: بالطبع الزاوية لا تسع كل هؤلاء، سنقيم سرادق في الحقل الملاصق للزاوية، وسترتب الأمور بالفرش وكل ما يلزم؛ حتى الطعام سيكون متوفرًا للجميع وبزيادة؛ كل شيء مرتب والحمد لله.

الشباب مستعدون لتقديم الخدمات والأمور ستمضي على ما يرام، ليس هناك أحد يا شيخ الظل من المسؤولين أو رجال الأعمال والشباب، وحدثته عن الاستعداد لهذا المولد إلا وقد رحب به وضرب بيده على صدره وقال نحن على استعداد لتقديم كل ما يلزم.

كان شيخ الظل يستمع إلى الشيخ عثمان، الواثق من حديثه، وقال في نفسه:

- يا الله.. هذا الشيخ عثمان يخطط وما علي سوى مسايرته وموافقتي الرمزية؟ ولكن ما العمل؟ كل ما قاله الشيخ عثمان صحيح، وهذا ما يحصل عادة، وقد حضر هو نفسه يومًا مثل هذه الموالد، ما دام قد قبل أن يكون شيخًا وبدأ عنده مجلس للذكر فعليه أن يمتثل للقواعد المعمول بها..

ضحك في نفسه وتذكر المثل القائل عندما تكون في روما افعل ما يفعل الرومان.. الآن هو شيخ زاوية وعليه أن يتصرف كما يجب أن يتصرف أهل الزوايا.

- ولكن يا شيخ عثمان- قال شيخ الظل متسائلا: انت تعرف بأن الزاوية جديدة، وبالتأكيد سيكون هناك عدد كبير جدًا من الحاضرين، فهل يمكن تقديم خدمات الإعاشة لكل هؤلاء؟

- ولا يهمك يا شيخ الظل؛ قلت لك الناس الخيرة موجودة، وهم يعتقدون فيك كثيرًا، وقالوا شيخ الظل الموس ونحن اللحم.

هؤلاء يا شيخ الظل عندهم من الرزق ما يطعم البلد كلها، فلا تشغل بالك. كل الأمور ستكون مرتبة؛ موافقتك يا شيخ فقط هي المطلوبة، والموعد في أي ليلة جمعة تراها مناسبة؟.. وبالنسبة للمكان سنستعمل الحقل الملاصق للزاوية وسنقيم به عدة سرادقات كما قلت لك، وستكون مجهزة بالفرش وكل ما يلزم.

يريد شيخ الظل أن يسأل عن أمر مهم بالنسبة له ولكنه متردد ولا يعرف كيف يطرح سؤاله على الشيخ عثمان، وبعد تفكير رأى من الضروري أن يسأله.

- يا شيخ عثمان ما هو المطلوب مني أثناء هذا المولد. أعني ماذا ترى علي أن أفعله؟

- يا شيخ الظل أنت شيخ بركة والأمور كلها تمشي بالبركة، وأنا معك يا شيخ، وأنت ما شاء الله عليك كنت مهندسًا ماهرًا وتفهم بالطاير.. على كل الحمد لله أنت الآن حتى دعاؤك ما شاء الله سيطلبون منك الفاتحة والدعاء، وربما في نهاية المولد سيأتونك ويباركون لك المشيخة، وهذا اعتراف بك كأحد المشائخ. في جميع الأحوال أنا معك وسأشير عليك إن اقتضى الأمر شيئًا.

نحن أيضا يا شيخ الظل ستكون لنا حضرتنا، وسنقيم الذكر الذي تعودنا عليه، ثم نبدأ في المدائح مع علي الدرويش، وسنبدأ من الآن بضرب الدف واستعمال النوبة والبازة والزل، وسوف أرتب ذلك؛ لا تفكر يا شيخ كثيرًا. إنها مأمورة فدعها تسير، الشباب جاهزون ولديهم خبرة.

أنت وعلي الدرويش ستكونان جالسين، في حين أنا والحاج عبد السلام سنتولى الإشراف واقفين وسط الحضرة، وفي حالة جذب أحدهم فسنتولى أمره؛ قد يتطلب الأمر أحيانًا أن نأتيك بأحد المجذوبين، وكل ما عليك وضع يدك على رأسه ثم تقرأ ما تيسر وتدعو له وسيقوم معافى.

أنا والشيخ عبد السلام سنكون شاويش الحضرة ونعرف ما يجب القيام به عند اللزوم، لا تشغل بالك.

يا شيخ الظل أنت شيخ، وهذه الأمور لا يتعلمها الإنسان بالتعليم ولكن يحسها بالقلب، وأنت لا تحتاج إلى معلم يا شيخ الظل؛ أنت لديك كنز والحمد لله، وهو علي الدرويش ومقامه حتى عند المشايخ ليس سهلا.

اطمئن يا شيخ الظل، كل الأمور ستكون على ما يرام.

- والله يا شيخ عثمان أنت البركة، وأنت عماد هذه الزاوية، ربنا يعطيك الصحة يا شيخ عثمان.

- بارك الله فيك يا شيخ الظل، أنا سعيد بأنني معك ومساعدك، وأنا تحت أمرك يا شيخنا وفي خدمتك، لا تنسني من دعواتك يا شيخ الظل، فأنا لدي عقيدة فيك أنت وعلي، وكنت دائمًا أحس بأن هناك شيء يجمعكما رغم كل الاختلاف الذي يبدو ظاهريًا. أغلب الناس يحكمون بالظاهر ولا يعرفون عِلم الباطن، أما أنا فدائمًا لدي إحساس بأن هناك شيء مخفي بينك وبين علي الدرويش سيظهر يومًا، وها هو قد حدث.

***

أخذ شيخ الظل يتمشى في الحقول التي حول الزاوية وهو يتذكر أيام صباه، وقال سبحان الله كيف تتغير الأمور، وكيف تجري

المقادير؛ كان يمكن أن يكون الأمر مختلفًا لولا تلك الليلة الكبيرة؛ ليلة نادي الجاز.

ما يزال يذكر كيف كان رأسه ثقيلًا ومصدعًا اليوم التالي، وكان يشعر به أثقل من جسمه بسبب شربه لكمية كبيرة من الخمر تلك الليلة، وكيف قرر اتخاذ أخطر القرارات.

لقد قرر الانتقال للعيش وحده والتوقف عن تناول الكحول وبذل أكبر جهد لإنهاء دراسته والعودة إلى ليبيا للاستقرار؛ وفعلًا نجح في ذلك، إلا أن الأمر لم يكن سهلًا في البداية فقد كان يرتبط بجوليا عاطفيًا، ونشأت بينهما مودة وتفاهم، ولكن لا بد مما ليس منه بد، فنظام حياته الذي يبتغيه لا يتماشى مع ما تربت عليه جوليا من مفاهيم؛ عليه التعامل مع الواقع وهو دائمًا معجب بطريقة التفكير الأوروبية، فهم عقلانيون ولا يتصرفون بالعاطفة، وقد جاء دوره لتطبيق ما تعلمه وأعجب به.

مما زاد من تشجيعه على قراره واعتقاده بأنه قرار صائب، هو مقابلته لتلك الفتاة بالقطار عندما كان مسافرًا إلى مدينة اورهوس بالدنمارك لحضور مؤتمر علمي، فقد كان يعد مشروع رسالة الماجستير.

ما يزال يتذكر تفاصيل ذلك اليوم، عندما كان يجري بالمحطة محاولًا اللحاق بالقطار المتجه إلى مدينة هامبورج، فقد تأخر قليلًا عن الموعد ولحق بالعربة رقم خمسة، صعدها وهو يلهث من الجري، فالوقت هنا لا لعب فيه، وإن فاته هذا القطار فسيتأخر لأربع ساعات، وسيضطر لتغيير حجزه.

أخذ يبحث في ممر القطار عن المقصورة حيث كرسيه رقم 18؛ دخل المقصورة وكانت واسعة، وفي كل جانب منها تتكئ 3 كراس مريحة، وأخذ مكانه جهة النافذة؛ قبالته كانت تجلس هناك فتاة صغيرة وجميلة يبدو إنها فى الثامنة عشر من عمرها؛ كان شعرها أسود به تموجات، وعيناها عسليتان بهما بريق جذاب، وبشرة بيضاء تلفحها بعض السمرة؛ حياها وأخذ مكانه بعد أن وضع حقيبته في المكان المخصص لها؛ جلس وأمعن النظر من خلال النافذة حيث تتحرك الأشجار والمباني في سرعة عكس اتجاه القطار، بدأ يتصفح كتابه إلا أنه لمح بأن هذه الفتاة تمعن النظر إليه ويعلو وجهها ابتسامة بريئة.

- من أين أنت؟.. سألته الفتاة.
- أنا من ليبيا.

ضحكت وقالت: خمنت إنك من ليبيا؛ وابتسمت!

- هل أنت ليبية؟

- لا أنا ألمانية.

- ولكن كيف توقعت إنني من ليبيا؟

- لأنك تشبه صورة والدي!

- اهه.. إذًا والدك من ليبيا.

- نعم .. قالت الفتاة.

قال وهو يبتسم: معنى ذلك أنت ليبية أيضا مثلي!

- لا لا.. أنا ألمانية.

- ولكن يمكن أن تكوني ألمانية، وأن تكوني ليبية في الوقت نفسه؛ أليس كذلك؟

- لا لا.. أنا المانية ولست ليبية.. قالتها بحزم!

اضطرب المهندس قليلًا وحار في إجابتها وقال في نفسه، لا بد إن لها تجربة سيئة مع أبيها، وربما أبوها طلق أمها. أخرجته من حيرته عندما سألته: وماذا عنك أنت.. تعيش هنا في ألمانيا؟

- نعم أعيش الآن في ألمانيا للدراسة.

- وهل ستعود إلى ليبيا بعد إنهاء دراستك؟

- نعم قريبًا سأعود إلى ليبيا.

ضحكت وقالت: أبي أيضًا- قالت لي أمي- كان يدرس هنا، وطوال الوقت كان يتحدث عن ليبيا، ولكن!

تجرأ ووجدها فرصة ليسألها عن أبيها: ألا تعيشين الآن مع أبيك؟

- أبي في ليبيا، في مكان ما؟
- هل تركك هنا مع أمك؟
- آه. ماذا أقول لك؟
- أبي ذهب إلى ليبيا ولم يعد... ظللت أنا وأمي لسنوات ننتظر عودته، ولكن لم نستطع الاتصال به، ومنذ ذلك التاريخ لم نسمع عنه شيئًا. كان عمرى آنذاك اثني عشرة سنة، كان ودودًا وطيبًا، وكان دائمًا يحدثني عن ليبيا ويحكي لي كثيرًا من القصص. وكنت أنتظر عودته، وقد وعدني بأنه المرة القادمة سيأخذني معه إلى ليبيا.
- آسف جدًا.. لابد إنه كان يحبك كثيرًا.
- ولكن لماذا تركني؟..
- لا بد أن هناك سببًا قاهرًا منعه من العودة!

وأخذ الحوار بينهما يتسع ويتشعب، ودون أن يدريا وجدا نفسيها يقومان بدور الأب وابنته التي تعاتبه، وأفاقا على حديثهما

الذي ارتفعت وثيرته قليلًا، فابتسما؛ فقد عاشا الدور بكل أحاسيه وانفعالاته.

- أنا آسف جدًا، ولكن تأكدي بأن أباك يحبك، وربما يأتي يوم وتزورين ليبيا وبلدته التي جاء منها.

- من أي مدينة أبوك؟

قالت إنه من مرزق في جنوب ليبيا، وكان دائمًا يقص عليّ قصصًا من هناك، عن الرمال والصحراء والقوافل، ويقول لي مازحًا: نحن من الفضاء.

أذكر بأنه قال لي قريب منا توجد منطقة وكأنها قطعة من الفضاء اسمها. واو.. شيء من هذا.

- آه لا بد إنها واو الناموس؟

- نعم.. نعم، هي؛ كان أبي يصفها لي ووعدني بأنه سيأخذني إليها، وقال إنها قطعة من الفضاء، حيث يوجد جبل بركانى وسط الصحراء تحيط به بحيرات متعددة الألوان وتتناثر الصخور البركانية حوله كأنها قطع هبطت من الفضاء منذ آلاف السنين. وحدثنى عن بحر الرمال حيث تمتد الكثبان الرملية إلى لا منتهى بمسافة مئات الكيلومترات، وحيث زرقة السماء وصفاؤها، وحيث السكون التام.. كنت دائمًا أحلم بالذهاب إلى هناك، ولكن؟

- يا لها من صدفة؛ تصور حكى لي والدي عن قصة رجل ألماني كان كل سنة يذهب إلى هناك، ويجلس على الرمال يراقب النجوم ويسبح في الفضاء بعيدًا عن هذا العالم الذي نعيشه!

كان ذلك الرجل الألماني يرتبط بعشق غريب بذلك المكان، إلى درجة لفتت انتباه السكان هناك، فآلفوه وصار صديقًا لهم؛ فقد كان لا يريد شيئًا سوى الجلوس والتحديق في السماء الصافية، مستلقيًا على الرمال حتى الصباح؛ لقد كتب وصيته بأن يدفن هناك، وفعلًا وجدوه ذات يوم مستلقٍ على كثيب من الرمل فاقدًا الحياة، وكانت تعلو وجهه ابتسامة؛ أخذوا تصريحًا من السلطات بدفنه هناك تطبيقًا لوصيته، وأعتقد بأن روحه ما تزال هناك تسبح إلى الفضاء وتهبط إلى مكانها على تلك الرمال.

ربما حصل لوالدي الشيء نفسه؛ ربما بقي هناك مستلقٍ على الرمال في ذلك المكان الفضائي، حتى أسلم الروح في هدوء بعيدًا عن الضجيج.. أو ربما ضاع هناك في غيابات عالم آخر يعيش مع أولئك الذين لا نراهم؛ فقد حدثني عن قصص وأساطير كثيرة عن جبل الجن هناك أيضًا في الجنوب.

قال والدي إن من يذهب هناك، ويقترب من جبل الجن يختفي ولا يعود، مثلما تختفي السفن في مثلث برمودا.

تصور.. ما أزال أحلم بأبي ونحن نسرح في تلك الأماكن الخيالية التي حدثني عنها، وأشعر بالحنين الجارف إليه فقد كان يأخذني دائمًا بعيدًا بخيالي، ويظل يروي لي قصصًا عن الصحراء وجمالها وأسرارها. صحيح ما قلت؛ أشعر في أعماقي إنه يحبني ولكن لماذا تركني؟.. قالت ذلك بحزن.

والدى كان يقول لى: الليبيون يشتركون فى ثلاث أشياء تحدد هويتهم، و هى أكلهم للشعير وللتمر وللحم الإبل، فإن وجدت أناسًا يفعلون ذلك فتيقنى بأنهم ليبيون!

وكان دائمًا يردد بأن الليبيين قاوموا أقسى ظروف الطبيعة بهذه النِعَم الثلاثة التى وهبها لهم الله، فالشعير والنخل والإبل، هى التى حافظت على حياة الليبين آلاف السنين، بل ومكنتهم من عبور الصحارى الشاسعة وربط افريقيا بأوروبا عبر تجارة القوافل، وجعلتهم يقاومون كل سنوات القحط والجدب التي مرت بهم.

وأضافت: كنت دائمًا أحلم بأن أذهب مع أبي إلى هناك. إلى تلك الصحارى والأماكن الخيالية، وأكتب قصة عنها. تعرف أحن كثيرًا لأبي ولهذا عندما رأيتك تخيلتك أنت هو، ولذا رغبت في الحديث معك، ولدي إحساس خفي بأنك تشبهه حتى في مصيره؛ ربما

ستذهب أنت أيضًا إلى كهف الجنون وتبقى بقية حياتك هناك، ولن تعود إلى ألمانيا ثانية!

بصراحة أحب أن أعيش هنا في ألمانيا، أتمتع بحريتي وأحب أن أرحل بخيالي هناك كزائرة؛ هنا الواقع جميل، وهناك الخيال رائع، ولكن يظل الخيال خيالًا ولا يمكن أن يتحول إلى واقع.

هذا حال أبي كما قالت لي أمي، كان من الصعب عليه التمييز بين الواقع والخيال، ولذا اختفى ولم نجده، لا هنا ولا هناك، ضاع ولم يترك لي سوى الذكرى، وهذه الأفكار التي تتنازعني بين الحقيقة والخيال.

- ربما تذهبين يومًا؟

- لا لا. لن أذهب، فقد قالت لي أمي بأنني لو ذهبت فلن يتركونني أعود إلى ألمانيا. أقصد إن عائلة أبي في ليبيا لن يسمحوا لي بالسفر ثانية إلى ألمانيا، وهناك حالات كثيرة حصلت، كما قالت أمي.

- هل تلتقين ببعض الليبين هنا؟

- لا. لا ألتقى بالليبيين، فحتى أصحاب أبي الليبيين الذين كان يلتقي بهم ابتعدوا عنا ولم يعودوا يزورونا. صديق واحد لأبي حافظ على الإتصال بنا فترة، وكان رجلًا طيبًا يحب أبي، وهو الذي أخبر أمي بأنه قد انقطع الاتصال بأبي ولا يعرف ماذا حصل له.

في الجامعة التقيت ببعض الطلبة العرب وتعرفت على أحدهم، وزارنا في البيت؛ كان شابًا لطيفًا ولكن أمي نصحتني بالابتعاد عنه وقد أقنعتني؛ قالت لي انهم جميعا يعيشون هنا ولا يعيشون! إنهم لو قضوا كل حياتهم في ألمانيا فهم دائمًا يشعرون بالغربة؛ بصراحة فكرت في الأمر وقطعت علاقتي به لأنني لا أريد لابنتى أن تعيش التجربة نفسها التي مررت بها. لا أريد أن أحرم ابنتي من رؤية أبيها كما حصل لي؟

***

لقد هزته قصة هذه الفتاة وتخيلها ابنته، وقد شجعته أكثر على ضرورة العودة إلى ليبيا والعيش وسط عائلته.

وفعلًا ها هو قد عاد وتزوج وأنجب أطفالًا، ولكن لم يخطر بباله أبدًا أن تجري المقادير بهذه الطريقة، وأن يصبح شيخ زاوية صوفية. أمر لا يخطر لا في العلم، ولا في الحلم، كما اعتادت أمه رحمها الله أن تقول.

***

(14)

بدأت الاستعدادات تجري على قدم وساق استعدادًا للمولد الذي ستقيمه زاوية شيخ الظل، ومنذ يوم الأربعاء بدأ الشباب في تركيب مكونات السرادق في الحقل المجاور للزاوية، وبدأت سيارات الخدمات تأتي بالمياه والمشروبات وكل ما يلزم من تموين، تخزن بمخزن الزاوية؛ إحدى الشركات أرسلت شاحنتي ثلاجة معبأتين بالتموين والمياه والمشروبات، حتى شركة الكهرباء أرسلت فنييها لتركيب الإضاءة بالسرادق، ووحدة المرور بتاجوراء بدأت استعدادها لاستقبال السيارات وتنظيم الحركة، وقد مسحت قطعة أرض خالية قريبة من الزاوية وأعدت لتكون موقفًا لسيارات الضيوف.

كان الشيخ عثمان في حركة ذائبة يوجه الشباب، ويدير مشروع احتفالية المولد بكل حماس؛ الطباخون مستعدون، والتجهيزات كلها جاهزة، وحشد من الشباب مستعد لتقديم الخدمات، والموضوع يحتاج لإدارة جيدة، حيث من المتوقع أن يصل عدد الحاضرين للمولد أكثر من خمسمئة شخص.

صباح يوم الخميس كان الشيخ عثمان واقفًا قرب الزاوية يشرف على التحضيرات، ويسأل عن كل كبيرة وصغيرة، ويحيط به حشد الشباب الجاهزين لتنفيذ تعليمات الشيخ عثمان؛ كل شيء جاهز، فبعد المغرب سيتناولون العشاء، وبعد صلاة العشاء سيبدأ المولد؛ هكذا خطط الشيخ عثمان.

سيبدأ الحفل بعد العشاء مباشرة، حيث سيكون المشايخ والضيوف الرئيسيين داخل الصالة بالزاوية، وسيبدأ الاحتفال بمجلس الذكر الذي يرأسه شيخ الظل، وبعد انتهائه تتوزع الفرق الصوفية بأماكن مختلفة في السرادق الخارجي، وتبدأ كل فرقة صوفية في تقديم حضرتها.

منذ العصر بدأت الوفود تأتي إلى الزاوية، وكان أولهم الشيخ إبراهيم وبعض المشايخ من زليطن ومسلاتة، وقد رحب بهم الشيخ عثمان وأدخلهم حيث شيخ الظل، فسلموا بحرارة عليه، وتولى الشيخ ابراهيم تقديم المشايخ الذين معه كما عرفهم على شيخ الظل، الذي قال عنه إنه رجل البركة ومن أهل الله.

توافد بعد ذلك تباعًا شيوخ الزوايا العروسية، والبرهانية، وشيوخ الزوايا العيساوية بمدينة طرابلس، وكل زاوية بمريديها؛ كان الشيخ عثمان على رأس المستقبلين يساعده الشيخ عبد

السلام ومجموعة من الشباب، فيدخلون المشايخ إلى الصالة حيث يجلس شيخ الظل مع ضيوفه، ويحيلون المريدين للجلوس بالسرادق الخارجي.

عند آذان المغرب دخل الجميع للصلاة، وقد كان العدد كبيرًا، بحيث لم يستطع الجامع استيعابهم جميعًا، مما اضطرهم للصلاة بالسرادق في أكثر من مجموعة.

كانت الاستعدادت بعد صلاة المغرب على خير ما يرام، وبدأ حشد الشباب، يقومون بالخدمات وتوزيع الطعام على الضيوف، كل الأمور كانت تحت السيطرة، فعلى الرغم من أن الحاضرين زادوا على ستمئة ضيف، إلا أن عملية توزيع الطعام تمت بكل سلاسة وحرفية، والجميع لاحظ دقة التنظيم وسرعة تقديم الخدمات.

بعد صلاة العشاء اجتمع جماعة شيخ الظل بالصالة الرئيسية حيث المشايخ، وبدؤوا في جلسة الذكر، حيث أذن شيخ الظل للشيخ عثمان للبدء بالتسابيح الجماعية التي كان يتخللها قصائد المديح ويقودها علي الدرويش.

كانت الصالة غاصة بالسامعين، بل حتى خارج الصالة كان هناك عدد كبير واقف بالخارج أمام الصالة يستمعون إلى علي الدرويش

وهو ينشد بشكل لفت أنظار الجميع لعذوبة صوته والموسيقى التي تنساب أثناء أدائه؛ لاحظ الجميع ومنهم الشيوخ الحاضرين بأن علي الدرويش كان أثناء مديحه وإنشاده يسبح في عالم علوي يحلق في سماوات بعيدة، حتى يخيل إليك بأن موسيقى صوته قادمة من بعيد، وتنساب إلى القلب مباشرة، تنقلك إلى طبقات عليا خارج هذا العالم.

عند الانتهاء أعطى شيخ الظل الفاتحة، وبدأ بعض الشباب في رش ماء الزهر على الحاضرين.

كانت المفاجأة التي رتب لها الشيخ عثمان مع كبير مشايخ العيساوية الشيخ عبد الفتاح هي أنه بعد انتهاء حلقة الذكر يقوم الشيخ عبد الفتاح وبجانبه الشيخ عثمان، وقد أشار الشيخ عثمان إلى شيخ الظل بالوقوف، وكانوا جالسين جنبًا إلى جنب، فألبس الشيخ عبد الفتاح طاقيته لشيخ الظل وأخذ هو طاقية شيخ الظل، وعندها صاح الشيخ عثمان وبعده الشيخ عبد السلام:

- الصلاة على النبي. الصلاة على النبي، وردد المريدون: الصلاة على النبي.

كان هذا اعلانًا بأن شيخ الظل هو أحد شيوخ الزاوية العيساوية الآن، وقد كان هناك تنافس بين الزوايا؛ كل يطمح بضم شيخ الظل إلى زاويته.

نجح الشيخ عثمان باعتباره أحد شيوخ العيساوية في حسم هذا الأمر، وكان قد رتب هذا الموضوع وهيأ شيخ الظل لذلك.

هنأ الشيخ عثمان شيخ الظل بالمشيخة، ورحب به شيخًا من شيوخ العيساوية، وقام بقية الشيوخ وهنأوا شيخ الظل والشيخ عبد الفتاح ورحبوا بشيخ الظل في الحضرة الصوفية.

أخذ أعضاء الزوايا مواقعهم المختلفة في السرادق، واستعدوا للبدء في تقديم نوبات حضاريهم، وقد انتشرت مواقد النار التي تبدو حمراء متوهجة في الليل استعداد لتسخين الدفوف.

بدأ البعض يتحركون بالمباخر، حيث ينطلق منها عبق الجاوي والفاسوخ، فيضفي على المحيط جوًا روحانيًا يتعانق فيه دخان البخور مع دقات الدفوف التي بدأ أصحابها يجربونها استعدادًا للبدء في الحضرة.

فترة وتحول هذا الحقل الساكن بين أشجار النخيل إلى عالم ينتمي إلى عالم آخر، تختلط فيه دقات الطبول والدفوف ورنين الزل، لتحوله إلى شيء يختلط فيه الواقع باللاواقع، والمعقول باللامعقول.

بدأت دقات الدفوف تتسارع وترتفع، ومعها ترتفع أصوات المادحين والمجاذيب، وهي تردد في صوت جماعي مهيب:

- الله الله الله... تتناغم مع حركات الأجساد، وهي تتمايل في حركة تناسقية كأنها أرواح تحاول التحرر من الجسد لتنطلق إلى عالم آخر، وتسبح بعيدًا، بعض المجاذيب وصلت بهم حالة الوجد إلى الخروج عن المحيط فطفقوا يتحركون في اللاوعي، بعضهم تهتز رؤوسهم بشكل سريع يمنة يسرة، وبعضهم تتمايل أجسادهم صعودًا وهبوطًا بشكل متسارع، كأنها تنفض عنها أثقالًا ملت حملها، وبعضهم يقفز ويصيح بكلام غير مفهوم، ويجرى نحو النار يمشي عليها، ويضع الجمر في فمه؛ يتصاعد دخان البخور راسمًا لوحات تنعكس على أشعة الضوء، فتحس بأن هناك آخرين يشاركون في هذه الحضرة من غير الحاضرين!

ارتفعت وثيرة الإنشاد، وزادت دقات الدف والطبل صعودًا، حتى أولئك الضيوف الذين كنت تحسبهم ثقالًا لم يقاوموا هذا المشهد، ومنهم الحاج سعيد وبعض المسؤولين الكبار الذين تغيرت أحوالهم وسقط عنهم قناع الجدية والرصانة فأخذوا يجذبون فاقدين السيطرة على أجسادهم التي بدأت ترتعش كل أطرافها فيتمايل الجسد في حركات تنفض عنها ما علق بها من آثام!

هنا في الحضرة انتفت سلطة الحكومة وتساوت الأجساد الثائرة في بحثها عن خلاصها وخروجها إلى عالم آخر، تتفاعل مع ضربات

الدف ورنين الزل وإيقاع الطبل، متدثرة برائحة البخور والجاوي؛ حتى الحرس الذي جاء مع الحاج سعيد وكان حاملًا سلاحه معه، ذهب انضباطهم وارتخت أجسادهم وأصبحوا هائمين يتمايلون دون وعي، وأعينهم لم تعد يقظة بل صارت سابحة تتابع حركة البخور الصاعد في السماء، راسمة أشكالًا لمخلوقات أخرى من غير هذا العالم، سلبتهم سلطتهم، وردتهم أناسًا عاديين مثل بقية خلق الله.

***

(15)

أصبحت زاوية شيخ الظل تستقطب أعدادًا كبيرة من الرجال كبار السن، شبابًا ونساءً وأطفالًا، يأتون من مختلف أنحاء ليبيا طالبين بركات شيخ الظل، كل يأتي لغرض، فالبعض منهم للعلاج، والبعض لأسباب اجتماعية مثل أبطال السحر وتيسير الزواج وإنجاب الأطفال.

انضم عدد لا بأس به من الشباب إلى حلقات الذكر التي تقام أسبوعيًا، وكثير منهم يأتي إلى شيخ الظل يطلب منه المشورة ويأخذ البركة، وكثير من المسؤولين وأصحاب النفوذ أصبحوا مريدين دائمين لشيخ الظل، يتقربون منه طالبين بركاته ودعواته ويقدمون الدعم المالي للزاوية بسخاء، آملين في بركة شيخ الظل ودعائه لهم.

أصبحت التبرعات تنهال على الزاوية، وكان شيخ الظل قد عهد بهذا الأمر إلى الشيخ عثمان؛ وكان أحد رجال الأعمال قد تحدث مع شيخ الظل على انفراد، وطلب منه أن يستلم بنفسه تبرعات المسؤولين لأنهم يقدمون مبالغ كبيرة، ومع احترامهم للشيخ عثمان إلا أنهم يريدون التأكد بأن شيخ الظل قد استلمها.

شكل شيخ الظل لجنة تتكون من الشيخ عثمان والشيخ عبد السلام، وأحد الشباب المحاسبين من المريدين المقربين لشيخ الظل لتولي الأمور المالية، يستلم شيخ الظل التبرعات من أهل الخير ويقوم بتسليمها إلى اللجنة التي توثقها وتحفظها في حساب فتح باسم شيخ الظل، كما تقوم اللجنة بمتابعة كافة المصاريف، تصرف بشيكات يوقعها شيخ الظل، مع الاحتفاظ بسيولة للنثريات.

بين الحين والآخر كان بعض المسؤولين الكبار يطلبون عقد مجالس الذكر ببيوتهم، ومنهم الحاج سعيد، وكان شيخ الظل يذهب هو وبعض المريدين هناك، حيث عادة ما يقدمون العشاء، بعدها يقام مجلس الذكر.

بدأت الأمور تسير على ما يرام، وعدد الناس التي تعتقد في بركات شيخ الظل تزداد، حتى أصبحت الزاوية تعج بالزائرين، لا تخلو يومًا من عدد لا بأس به منهم.

تفاجأ شيخ الظل بهذا الكم من التبرعات التي بدأت تنهال عليه من المسؤولين ورجال الأعمال، واستغرب هذه الخدمات التي يقدمها الكثير من المريدين لزوار الزاوية؛ هكذا ادارة ذاتية منظمة، دون أن يكون له دور مباشر فيها.. ففكر في طريقة لمساعدة الشباب المريدين بتأسيس صندوق دعم للشباب، يقدم

لهم قروضًا تساعدهم على الزواج، ولفتح مشاريع صغيرة خاصة توفر لهم عملًا شريفًا يعتاشون منه، خاصة أن البطالة قد أصبحت ظاهرة متفاقمة عند الشباب.

دعا شيخ الظل بعض الشباب واجتمع بهم وطرح عليهم الفكرة التي رحبوا بها، وشكروا شيخ الظل على اهتمامه؛ فوضعوا لائحة خاصة بصندوق الدعم، واختار شيخ الظل لجنة لإدارة هذا الصندوق تتكون من الشيخ عثمان، والشيخ عبد السلام، وخمسة من الشباب، تقوم بدراسة الطلبات وتقدر حجم القرض وتتابع تسديده وفقا لظروف كل حالة.

إلى جانب الأموال التي يتبرع بها مباشرة للزاوية، أخذ الشيخ عثمان في جمع التبرعات بطريقته الخاصة، فهو صاحب خبرة في ذلك، يذهب إلى بعض الميسورين ويطلب التبرع والصدقة للزاوية، كما وجد طريقة شرعية للاستفادة أيضًا على المستوى الشخصي من هذه التبرعات، حيث استند على إنه من العاملين عليها! ولذا فمن حقه نصيب من هذه التبرعات، فحدد نصيبه بنسبة الثمن، وذلك أيضًا على أساس أن الصدقات للفقراء والمساكين وغيرهم، وقد عددهم ثمانية، ولذا فإن حقه من ذلك الثمن.

بدأت الأموال تنهال على الزاوية، وقد وصل حسابها في بضعة أشهر ما يزيد عن مليوني دينار، فاجتمع شيخ الظل بلجنة صندوق دعم الشباب وناقش معهم الطرق المثلى لدعمهم بالبحث عن عمل وتشجيعهم على أخذ المبادرات واختيارهم وفقا لمعايير الأخلاق والاحتياج والجدية دون تمييز، بل ذهب شيخ الظل إلى أبعد من ذلك فقد جعل للشباب دورًا بارزًا في تقييم طلبات الدعم، وفي تقدير الملاءمة لطالبي المساعدة من الصندوق.

لم تمضِ بضعة أشهر حتى تحول كثير من الشباب بفضل هذا الصندوقٍ من شباب عاطل إلى شباب له مشاريعه الخاصة، وكثير منهم نجح بل صار بعضهم مضرب مثل للنجاح، مثل فتحي الذي اقترض خمسة آلاف دينار، وكان يتاجر في الأحذية، يسافر إلى تركيا يجلبها ويبيعها، وفي فترة وجيزة استطاع أن يملك دكانًا وبدأت أحواله تتحسن كثيرًا، وقد قام برد كل ما أخذه، بل صار أحد الداعمين للصندوق بتبرعاته، مثل آخر مجموعة من الشباب تحصلوا على قرض من الصندوق وأسسوا ورشة صيانة سيارات، وقد نجح مشروعهم وأصبحوا أيضًا من أكبر الداعمين للصندوق؛ عشرات الشباب استفادوا من هذا الصندوق وأصبحوا من الداعمين له والمشجعين على توسيع نشاطه لخدمة الشباب؛

لقد داع مشروع شيخ الظل للشباب، فتحمس له كثير منهم فجاؤوا إليه من مناطق بعيدة وقد شجعهم شيخ الظل على فتح جمعيات في مناطقهم وجعل لكل جمعية بالمنطقة ممثل لهم في لجنة تسيير صندوق الدعم.

لاحظ شيخ الظل عزوف بعض الشباب عن الذهاب معه إلى بعض مجالس الذكر التي تقام لدى المسؤولين، وقد دعا أحدهم القريبين منه للاستفسار عن السبب، فتحدث الشاب مع شيخ الظل بصراحة، وقال له:

- يا شيخنا الشباب يحترمونك كثيرًا ويقدرونك ويعرفون بأنك انسان نزيه، حتى قبل أن تصبح شيخ الظل، ولكن بصراحة الشباب متضايقون من الذهاب إلى المسؤولين في بيوتهم لأن ذلك يبين كأن الزاوية هي لخدمة الحكومة، ويطرح علامات استفهام حولها من البعض.

تفاجأ شيخ الظل بذلك، وشكر الشاب وقال له: يا ابني أنتم تعرفون بأنني لم أكن يومًا انتهازيًا، عشت حياتي بعيدًا عن المسؤولين؛ صحيح معك حق وأشكرك لتنبيهي لذلك، ولا أقبل أن أحسب انتهازيًا في آخر عمري، وقد قاومت طوال حياتي كل الإغراءات وعشت مستقلًا بعيدًا عن النفاق والتملق؛ يا ابني أنا

أومن بالديمقراطية، وحتى صندوق الدعم كما ترى أصحاب القرار فيه هم الشباب أصحاب المصلحة، ويشهد الله بأنني لا أسعى لشيء إلا لوجه الله وخدمتكم؛ أريدك يا ابني إن لاحظتم شيئًا لا يعجبكم فرجاء أن تخبروني وتصارحوني، فقد يحصل أن أسهو عن شيء بدون قصد، وأريدك أن تبلغ تحياتي للشباب، وتعلمهم بأنني من الآن لن أذهب إلى بيوت المسؤولين، وإذا رأوا أي خطأ مني فعليهم أن يبلغوني ولا يتحرجوا من ذلك، فنحن جميعًا نخطئ.

فرح الشاب كثيرًا بما قاله شيخ الظل وذهب إلى أصحابه وأبلغهم بما قاله الشيخ، فجاء جماعة منهم إليه يشكرونه ويعاهدونه على أنهم سيكونون خير عون له لأنهم يثقون فيه، وقالوا له ليس سهلًا أن تجد في ليبيا هذه الأيام انسانًا مسؤولًا تثق فيه!

أبلغ شيخ الظل الشيخ عثمان قراره بعدم الذهاب مستقبلًا إلى بيوت المسؤولين لعقد جلسات الذكر، ومن يريد منهم فأهلًا وسهلًا به هنا في الزاوية.

حاول الشيخ عثمان أن يثنيه عن قراره هذا قائلا: هؤلاء من أكبر الداعمين للزاوية وهم الحكومة ولا نريدهم أن يعتقدوا بأننا ضدها.

كان شيخ الظل حاسمًا في هذا الأمر، وقال للشيخ عثمان: لك أن تعلمهم بطريقتك الخاصة، ولكننا لن نذهب مستقبلًا إلى بيت أي مسؤول، ومن أراد دعم الزاوية فبها، ونحن متوكلون على الله؛ ألم تقل لي يا شيخ عثمان في بدايتنا دعها فإنها مأمورة، فدعها بالتوكل ولكن لن نكون أتباعًا لأحد؛ نحن لا علاقة لنا بالحكومة، نحن مع الناس ومعنا الله، لا نحتاج لغير ذلك وبابنا مفتوح للجميع.

بدأت الدعوات توجه إلى شيخ الظل لزيارة بعض المدن والبلدات، وكانت تقام له استقبالات حاشدة يشارك فيها عدد كبير من الناس، بل أصبحت زياراته إلى المناطق حديث الناس في كل مكان وخاصة شعبيته بين الشباب، بسبب انتشار فروع صندوق دعم الشباب الذي طوره شيخ الظل بحيث أصبح قادرًا على الاستمرار بسبب الدعم الذاتي الذي يحصل عليه الصندوق من الشباب الذين نجحوا في مشاريعهم.

بدأت التقارير تصل إلى الحكومة عن زيادة نفوذ شيخ الظل، خاصة بين الشباب وعن برامجه التي يقوم بها، والتي تخرج عن نطاق مهام الزاوية الصوفية.

وفد زوار كثيرون على الزاوية، بعضهم غير معروف لأهل المنطقة، والبعض منهم يتابع مجالس الذكر، والبعض الآخر يراقب

دون أن يتحدث مع أحد، وآخرين يتحدثون مع الزوار لمعرفة سبب مجيئهم، ومن أي منطقة هم.

كان من ضمن الزوار الجدد للزاوية جمعة الشيركو، وقد أثار مجيئه إلى الزاوية الكثير من الاستغراب والدهشة، فتاريخه الذي يتداوله الناس لا يتماشى مع الزاوية، ومع هذه الأمور، فهو رجل صاحب سوابق والناس لا تنسى!

الشيركو كما ينادونه، رجل في مقتبل العمر، طويل القامة، ذو بنية قوية، وكان قد انتقل إلى السكن في تاجوراء منذ حوالي ثلاث سنوات، لا أحد يعرف بالتحديد من أي مدينة هو، فعندما يسأل يذكر كل مرة مدينة حتى كاد أن يغطي كل مدن ليبيا.

حياة الشيركو كما يقول منذ بدايتها قدر أحمق الخطى، لا يعرف لماذا هو أصلًا في هذا الوجود؟

كان يعمل فنيًا باحدى المؤسسات، وأوفد في الستينات إلى بريطانيا لتعلم اللغة، وتلقى بعض التدريب؛ عندما كان هناك دخل حياة الليل بعمق وعرف كل خباياها، وكان بما وهبه الله من بسطة في الجسم، يستعمل قوته عند اللزوم، فلم يكن يتردد أبدًا في الدخول في أي معركة مهما كان خصمه، لذلك عرف بتهوره هذا، وجعل رواد الملاهي الليلية يعملون له ألف حساب.

تعرف على بعض الطلبة الليبيين الذين يرتادون أماكن اللهو خلال عطلة نهاية الإسبوع وعمل معهم علاقة وديـة، كانوا يساعدونه ببعض المال، وكان هو أيضًا لا يقصر في الوقوف معهم كلما حدثت مشكلة.

كانت علاقته بهؤلاء الطلبة، علاقة خاصة يتداخل فيها الإعجاب بالشجاعة والعطف عليه والإحساس بأخوة المواطنة الليبية التي تجمعهم!

ذات مرة كان مارًا بالشارع الليلي، ورأى شابًا يؤنب ويعنف فتاة صغيرة من فتيات الليل، وكانت تلك الفتاة خائفة وترجوه أن يتركها في حالها، إلا أن الشاب أخذ في هزها بعنف، مهددًا بضربها، لم يعجب الشيركو ذلك وذهب إلى الشاب مباشرة وصاح فيه أن يترك الفتاة؛ ولكن الشاب كان أيضًا معجبًا بعضلاته واستغرب من هذا الذي يتدخل فيما لا يعنيه، فاقترب من الشيركو ومد يده نحوه بلكمة أصابته في وجهه.

لم يكن من الشيركو إلا أن ضربه بلكمة قوية طرحت ذلك الشاب أرضًا، وأمسكه من قميصه جهة الرقبة وأنهضه بقوة من على الأرض، وصاح فيه إن تلمسها ثانية فسوف أبعثك إلى جهنم.

خاف الشاب وارتعش، فقد شعر بقوة الشيركو وتفوقه عليه فأخذ حاله وانصرف. شكرت الفتاة الشيركو على انقاذها وألحت عليه أن يمضي معها إلى بيتها، فهي تحس بالأمان معه.

منذ تلك الليلة أمسى يعيش مع تلك الفتاة، يقوم بحمايتها عند اللزوم، وهي توفر له كل احتياجاته.

لقد انقطع عن الدراسة ودخل حياة الليل بكل متاهاتها، خمر وحشيش وسهر ونساء، ولا ينام إلا عندما تقفل الملاهي الليلية أبوابها، أصبحت له علاقات خاصة مع بعض المافيات التي تنشط في هذه الأوساط، يستعينون به ويتبادلون معه الخدمات.

ذات مرة علق في مشكلة كبيرة وأصيب فيها عدد من الأشخاص مما أدى لنقلهم إلى المستشفى. قبضت عليه الشرطة هو والمجموعة التي معه وحكم عليه بالسجن سنة، وعند انقضائها سُفِّر إلى ليبيا.

عاد إلى طرابلس في بداية السبعينات، وبسرعة بنى علاقات ببعض أصحاب السوابق، ودخل في أجواء الحياة السرية للمدينة التي كان مركزها بعض المساكن شبه المهجورة بالمدينة القديمة، التي تجعل من أزقتها الضيقة مكانًا ملائمًا للابتعاد عن أعين الشرطة. تعرف في هذه الأثناء على ليلى العفريتة.

ليلى العفريتة قصة أخرى، فهي لا تعرف من أبوها، وأمها كانت تعمل بشارع الكِندي، وكانت لها مكانتها ومعارفها الكثيرون هناك.

ليلى منذ صغرها عاشت في وسط فوضوي لا قيمة فيه لا للرجال ولا للنساء؛ الحياة مع أمها في هذا الوسط عرفتها على طبائع الرجال، ورأت الوجه الآخر لحياة العفة التي يدعيها معظم هؤلاء الزبائن الذين يأتون لزيارة أمها، تلك الحياة مكنتها أيضًا من الإطلاع على كثير من الأسرار والخبايا وحقيقة الوجه الآخر للمجتمع؛ الزبائن الذين يأتون لأمها، ما أن يأخدوا كأسًا حتى تبدأ قصصهم تنساب الواحدة تلو الأخرى، يتحدثون عن كل شيء، وعلى الرغم من نجاح ليلى في المدرسة وتخرجها من معهد المعلمات إلا أنها وجدت نفسها مدفوعة للعيش في نفس طريق أمها، كانت أحيانًا تمزح مع نفسها عندما تسمع أحدًا يتحدث بالنحوي فتقول، هذا ما جنته علي أمي ولن أجني على أحد!

كانت ليلى فتاة ذات جمال يلفت النظر، وكانت خفيفة الظل، ولو أن مسحة من الحزن تبدو في نظراتها؛ تتقن الغناء والرقص وإلقاء النكات الفاضحة، ولسانها كما يقولون أطول من رقبتها، في الشارع يخشونها من طول ذلك اللسان، رغم شعور المرارة داخلها من وضعها هي وأمها، إلا أنها كانت ترتبط بأمها كثيرًا وتحبها، تقول

دائمًا لا أفرط في الإنسانة الوحيدة التي تحبني، فالآخرون لهم كثيرون ممن يحبونهم، أما أنا فليس لدي سوى أمي.

لقاؤها بالشيركو فتح لهما بابًا جديدًا، فمنذ البداية شعرا بأن علاقتهما أكبر من كونها علاقة عابرة، وعلاقة مصلحة متبادلة؛ لم تجمعهما الجغرافيا فقط، بل جمعهما أيضًا التاريخ المشترك!

ارتبطا ببعضهما البعض ارتباطًا قويًا، وصحت غريزة الحب في قلبيهما، وقررا الحياة سويًا على سنة الله ورسوله وتزوجا.

انتقلا للعيش بعيدًا عن هذه الأماكن الموبوءة، وتوقفا عن تلك الحياة التي كانا ضحية لها؛ بدأ الشيركو يعمل بأحد المصانع، وبدأت هي تعمل باحدى الشركات موظفة ادارية.

تغيرت حياتهما تمامًا، وأخذا يحلمان مثل بقية الناس بالحياة المستقرة، وحلما بتكوين العائلة التي حرما منها، فهما يعيشان وحدهما؛ فلا أقارب لهما في المدينة، وحتى من وجد من الأقارب انقطعت الصلة به منذ أمد بعيد.

كل الأمور كانت تمضي على ما يرام بينهما، نسيا الماضي ومآسيه وانشغلا بنفسيهما وبالتخطيط للمستقبل.

لم تعد ليلى تخرج إلا مع زوجها، واستطاعا شراء سيارة مستعملة، وكثيرًا ما كانا يخرجان بها إلى شاطئ البحر يستمتعان

بالهدوء والطبيعة، وعادة ما تعد ليلى سندوتشات وشاي يتناولانها على شاطئ البحر، كانا يتجنبان الخروج والذهاب إلى الأسواق هربًا من التاريخ. وكانا سعيدين يشعران بالفخر بأنهما قد استطاعا أن يعبرا إلى بر الأمان أخيرًا، ويعيشا مثل بقية خلق الله.

ولكن الحياة لا تمضي كما يريدان.. والشر متأصل أكثر من الخير!

ويظل الماضي في هذه البلاد حيًا، بل إن الناس تقدس الماضي، وتنسى شيئًا اسمه الحاضر والمستقبل، دائمًا يحنون إلى هذا الماضي ويحاولون العيش فيه.

ليلى كانت كل يوم تذهب إلى العمل وتعود فرحة إلى بيتها، ولا تفكر في شيء غير حياتها هي والشيركو.

اكتشف الموظفون حيث تعمل تاريخها وتاريخ أمها، وبدأت المشاكل والمضايقات تطاردها؛ هؤلاء الرجال الشرفاء! الذين يتحدثون عن العفة والأخلاق، رأوا فيها صيدًا ثمينًا جاءهم من السماء.

كل يحاول معها وهي ترفض كل اغراءاتهم وتقول لهم إنها متزوجة وتناشدهم أن يتركوها في حال سبيلها.

ذات يوم طلبها رئيس القسم بالمكتب، وكانا على انفراد، أخذ يتغزل فيها ويريد معاشرتها هكذا وبدون مقدمات؛ أخبرته إنها

متزوجة ولكن ذلك لم يجدِ معه نفعًا، فقد هدد بفصلها وبالتشهير بها، فهى قحبة بنت قحبة كما قال!

شعرت بصدرها يضيق، ودخلت في حالة هستيريا من البكاء، خرجت من المكتب وتركت العمل متوجهة إلى بيتها؛ كانت تنتفض وجسمها يرتعش وتعيش حالة من السخط والكآبة.

عاد الشيركو إلى البيت فوجدها على حالتها هذه، فتساءل، ولكنها هذه المرة لم تستطع أن تخبئ عنه مضايقات وتحرش الموظفين بالعمل، وقصت عليه ما حدث لها.

واساها الشيركو وقال لها: هذا الذي يحسب نفسه رجلًا، سترين ماذا سأفعل به؟.. سوف أجعلك تتفرجين عليه، وهو ليس رجلًا أمامك!

رجته ألا يتهور ويفعل شيئًا فظيعًا، قالت: سأبحث عن عمل آخر وربما ننتقل إلى مدينة أخرى بعيدًا عن هؤلاء.

قال لها: ليبيا صغيرة، وحيث نذهب سيلاحقنا التاريخ، فنحن هنا نعيش في الماضي؛ صدقيني سيمضي وقت وسيحدث نفس الشيء أنا متأكد من ذلك، هل تعتقدين أن أمك استمرت في تلك الحياة لأنها ترغبها؟.. لا، ولكن لأنها لم تجد الفرصة لتعيش حياة جديدة؛ لابد أن آخذ لك حقك من هذا الوغد ولا يهم ما يحصل لي بعدها!

في اليوم التالي ذهب صحبة زوجته متأخرًا قليلًا، ودخل إلى المكتب الذي به رئيسها الذي أهانها، وقفل الباب من ورائه؛ استغرب الموظف وخاف من هذا الذي قفل عليه باب المكتب، وحاول الإعتذار وقال بأنه كان يمزح، وإنه لن يطردها من العمل.

نظر إليه الشيركو نظرة صارمة وأخرج سكينا من جيبه، وقال له:

- تقول انها قحبة بنت قحبة.. أرني رجولتك.. اخلع سروالك الآن!

سمع الموظفون صراخ الموظف، وفزعوا للباب الذي كان مقفلًا وفتحه لهم الشيركو، فرأوا ذلك الموظف غارقًا في الدماء.

مات الموظف نتيجة الجروح التي أصيب بها وحكم على الشيركو بالسجن 20 سنة، وكانت زوجته ليلى العفريتة تزوره كلما أتيحت لها الفرصة، وقد تغيرت مع الزمن وأصابها الحزن العميق، انتابتها حالة من الشرود؛ في احدى المرات عندما كانت في طريقها إلى زيارته لم تنتبه أثناء قطعها الطريق فصدمتها سيارة مسرعة؛ وصل الخبر للشيركو الذي حزن حزنًا شديدًا على فقدان زوجته، فقد كانت تعني له كل شيء، وكانت بالنسبة إليه هي الحياة؛ شعر بأنه لا ينتمي إلى هذا المجتمع الذي ظلمه مرات عدة، وفقد أي إحساس بالانتماء إلى هؤلاء الذين آذوه.

مرت خمس سنوات وهو يعيش الضياع داخل السجن، دائم الشجار مع زملائه السجناء، صار أكثر عدوانية، لا يثق في أحد، عرف في السجن بقسوته وتهوره وعدم اكتراثه بما يحيط به، فلا زائر يأتيه، ولا من يسأل عنه بعد وفاة زوجته.

ذات يوم استدعي إلى مكتب مدير السجن، كان هناك ضيف مع مدير السجن، وقد رحب بالشيركو وقال له:

- لقد سمعت عنك بأنك شجاع ولك تاريخ في المغامرة؛ أنت تستحق الحرية، وحرام أن تقضي كل عمرك في السجن، فما رأيك؟

تفاجأ الشيركو بهذا الحديث الودي وهذا العرض الغريب، وقال للضيف:

- شكرًا جزيلًا، وأنا لن أنسى لك هذا الجميل طوال حياتي، قل لي يا سيدي ما هو المطلوب مني فقد مللت حياة السجن؟

- أخذه الضيف جانبًا، وحدثه طويلًا عن شروط الإفراج عنه، وإنه في جميع الأحوال سيكلف بعمل هو مؤهل للقيام به، والحكومة لن تنسى له ذلك وستهتم به وتوفر له حياة هانئة.

وافق الشيركو، وبعد عدة أيام أفرج عنه، وبدأ تأهيله لعمله الجديد؛ منح شقة في احدى العمارات بوسط البلد، وأعطي مصروفًا محترمًا،

وأخذ حريته في الحياة كما يريد، دون رقيب على الممنوعات التي يتناولها.

بعد مدة أرسل إلى مالطا للنقاهة، حيث استقبله أحدهم هناك، وكان كل شيء متوفرًا له.

عاد بعد أسبوع إلى ليبيا، ويقال إنه سافر بعدها إلى بلد أوروبي للقيام بمهمة ما من قبل الرجل الذي زاره في السجن.

الآن بدأ الشيركو يتردد على الزاوية بين الحين والآخر، والجميع استغرب سر مجيئه!

الشيخ عز الدين استراب في زيارته إلى الزاوية، فهو معروف بأنه رجل مشاكل، فما سر تردده الآن على الزاوية؟

هل يريد خلق مشاكل لبعض المريدين؛ وبعض هؤلاء المريدين مسؤولون بالدولة؟

أم يا ترى هناك شيء ما في رأسه؟

سأل الشيخ عز الدين الشيخ عثمان إن كان يعرف سِر مجيء الشيركو، فلعل الشيخ عثمان بحكم صلاته العليا يعرف شيئا؟.. ولكن الشيخ عثمان قال له إنه لا يعلم شيئًا، وربما هداه الله.. من يدري؟

***

(16)

أصبحت زاوية شيخ الظل في ازدحام دائم وحركة دؤوبة، فقد تحولت إلى مؤسسة تقدم خدماتها للمريدين والزوار، وأيضًا مركزًا لصندوق دعم الشباب الذي تحول لإدارة حقيقية وتوسع نشاطه؛ كان الشباب يأتون من مختلف المناطق يلتقون ويناقشون القضايا الأخرى التي تهمهم إلى جانب موضوع التمويل أيضًا.

ما زاد من شعبية الصندوق، وعزز الثقة في شيخ الظل، إنه لم يجعل دعم الصندوق يقتصر على الشباب المريدين بالزاوية، بل كان مفتوحًا لكل الشباب، ولا شرط في انتمائهم للزاوية، فهم أحرار في ميولهم الفكرية ولا علاقة لذلك بخدمات الصندوق.

أثار هذا النشاط الاجتماعى للزاوية، وتقدير الناس لشيخ الظل حفيظة الحكومة، فأصبحت متضايقة جدًا من نشاط شيخ الظل وترى في الزاوية مصدر خطر.

أصبحت زاوية شيخ الظل محط اهتمام الناس والحكومة؛ كل يراها من زاويته.

كان شيخ الظل معتادًا خلال المساء وبعد المغرب مباشرة أن يذهب ويتمشى مع صاحبه علي الدرويش، حيث يمضون في السير لمدة ساعة أو ساعتين إلى قرب موعد صلاة العشاء؛ واعتاد الناس على رؤيتهما وهما في رحلتهما هذه شبه اليومية، ولا يعرف أحد ماذا يتناولان من حديث خلال مشيهما، حتى الشيخ عثمان يتساءل في نفسه أحيانًا عما يتحدثان عنه، ولكنه متفهم لهذا الأمر.

اتصل الشيخ إبراهيم اليوم، ودعا شيخ الظل وأصحابه للحضرة في زليطن، ولكن شيخ الظل اعتذر منه لأنه يشعر بوعكة صحية ووعده بأن يبلغ بعض جماعته بضرورة المشاركة.

بقي شيخ الظل في المساء ببيته لأخذ راحة، وكعادته بعد صلاة المغرب أخذ يتمشى وفق المعتاد، ولكن هذه المرة كان لوحده، حيث أن صاحبه علي الدرويش سافر إلى زليطن للحضرة هناك صحبة الشيخ عثمان والشيخ عبد السلام.

كان شيخ الظل يفكر وهو يتمشى في كيفية تطوير عمل الزاوية، وامكانية انشاء مركز صغير لتدريب النساء على بعض الأعمال المنزلية، مثل الخياطة والتطريز، حتى يكون لهن مصدر دخل يحسن به من وضعهن الاقتصادي.

بينما كان الشيخ سارحًا في تفكيره، فجأة تأتي سيارة مسرعة وكأنها عن عمد وتصدم شيخ الظل وتتركه مرميًا على الأرض، وتفر بعيدًا دون أن يراها أحد.

بقي شيخ الظل فترة ملقيًا على الأرض والدماء تسيل منه، حتى اكتشفه أحد المارة، ووقفت سيارة كانت عابرة الطريق، أخذت شيخ الظل إلى المستشفى، كانت حالته حرجة وفي حالة إغماء ووضع تحت العناية المركزة.

عندما عاد الشيخ عثمان وعلي الدرويش من زليطن علما بالأمر، وذهبا مباشرة إلى المستشفى حيث يرقد شيخ الظل في العناية.

انتشر الخبر وحزن كثير من الناس على ما أصاب شيخ الظل، وفي اليوم التالي كان المستشفى مزدحمًا بالناس الذين جاؤوا ليسألوا عن صحة شيخ الظل، مما اضطر الشرطة للتدخل والطلب منهم ترك المستشفى، لأن حالة الشيخ حرجة ولا يمكنهم زيارته؛ الوحيد المسموح له بالدخول على شيخ الظل هو الشيخ عثمان، وقد خرج إلى الناس وطلب منهم أن يذهبوا إلى الزاوية، وأن يدعوا لشيخ الظل أن يعجل الله شفاءه، وأنه لا فائدة من وجودهم بالمستشفى.

في الزاوية كان هناك تجمع كبير للناس، الكل يتحدث عما أصاب شيخ الظل، ويتساءلون إن كان الحادث متعمدًا، وبدأت تتداول العديد من الروايات، بعضها تشير إلى أن الحكومة ربما يكون لها ضلع في الموضوع.

جاء الشيخ عثمان إلى الزاوية وحاول أن يهدئ الناس، وقال لهم إن الشيخ محتاج لدعائهم، كما قال لهم بأن السلطات مهتمة جدًا بحالة شيخ الظل، وستبحث عمن صدم شيخ الظل بالسيارة.

ذكر لهم الشيخ عثمان أيضًا بأن الحاج سعيد قد وعده بإرسال شيخ الظل للعلاج بألمانيا، بمجرد أن تتحسن حالته قليلًا، ويسمح الطبيب المعالج بنقله بالطائرة.

انتشر خبر شيخ الظل انتشارًا سريعًا، وبدأت الوفود تأتي إلى الزاوية من مختلف أنحاء ليبيا للإطمئنان على صحته، تعهد الشباب الذين استفادوا من صندوق دعم الشباب بأن يتكفلوا بعلاجه بالخارج على حسابهم، وبدأوا في أخذ الاستعدادات لذلك، ينتظرون فقط تحسن حالة شيخ الظل لتسمح له بالسفر.

بدأ التوتر يزداد في الزاوية حول عدم إلقاء الحكومة القبض على الفاعل، واتهمها بعض الشباب بالتواطؤ وربما بالتورط؛

كان الشيخ عثمان يحاول جاهدًا تهدئتهم، والتأكيد لهم باهتمام الحكومة بالموضوع، وقال لهم بأنه ليس الحادث الأول الذي يقوم به شخص ما ويهرب؛ ذكرهم ببعض الحوادث المشابهة التي حصلت في السابق، فمن المحتمل أن يكون سائق السيارة في حالة سكر وصدم الشيخ وهرب.

ذهب الشيخ عثمان إلى المستشفى، حيث وضعوا له كرسيًا قرب سرير شيخ الظل، الذي كان يعالج في غرفة خاصة، وكان يحاول مخاطبة شيخ الظل الذي كان في حالة اغماء.

مرت أيام والشيخ في حالة اغماء، والناس تأتي إلى الزاوية، وقد حاول كثير من مشايخ الزاوايا الصوفية زيارة الشيخ بالمستشفى، وهم دائمًا في تواصل مع الشيخ عثمان؛ يتصلون للإطمئنان عن حالته. وكان الشيخ عثمان يقضي وقتًا طويلًا جالسًا قرب سرير شيخ الظل، خاصة في فترة المساء، ويقرأ بعض الآيات القرآنية وبعض الأدعية.

بينما كان الشيخ عثمان ينظر إلى السقف حائرًا، يفكر في أمر الزاوية، وكيف ستمضي الأمور إن توفي شيخ الظل، أحس بحركة من شيخ الظل، نظر إليه فوجد ابتسامة خفيفة مرسومة على محياه.

قام الشيخ عثمان من كرسيه، وانحنى على شيخ الظل وسأله:

- هل صحوت سيدي الشيخ؟

كان شيخ الظل يتمتم: لقد رأيتهم هناك. أريد أن أكون معهم!

- من هم يا شيخنا؟.. سأل الشيخ عثمان

- أريد أن أعود إليهم، إنهم هناك في سلام!

- ماذا رأيت يا شيخنا؟

آه.. كان هناك ظلام حالك، ما لبث أن تبدد، وحل محله نور يشع ملأني بالشعور بالسعادة، وانطلقت في فضاء الله الواسع، هناك الزمن غير الزمن، واللحظة غير اللحظة، ورأيت خلالها الماضي والحاضر، وحتى بعض المستقبل أحسه وأراه.

رأيت أقارب وأصحاب غادروا هذه الدنيا منذ زمن.. رأيت مولانا جلال الدين الرومي ماسكًا الناي وحوله مجموعة من المريدين، وكان يميل في سعادة مع نغمات الناي، حاولت اللحاق بهم ولكنهم كانوا يسبحون بسرعة واختفوا عن ناظري.

رأيت بعضًا من الناس مستبشرين يتناولون نوعًا من الفاكهة لا أعرفها ولم أشاهدها قبلًا، وطلبت منهم أن يعطوني بعضًا منها إلا أنهم قالوا لي وقتك لم يحن بعد وسبحوا بعيدا؛ رأيت حتى ذلك الذي دهسني بالسيارة وكان حاله يرثى له، إنه رجل مسكين.

- من هو يا شيخنا؟ ما اسمه؟

- اذهب يا شيخ عثمان، واتني بصاحبي علي الدرويش!

خرج الشيخ عثمان وعاد بصحبة علي الدرويش، تركهما لوحدهما لما يزيد عن ساعة، فقد فهم الشيخ عثمان أن شيخ الظل يريد أن يختلي بعلي الدرويش.

عندما دخل الشيخ عثمان ثانية للغرفة، وجد علي الدرويش يبكي، وشيخ الظل مغمض العينين؛ سأل الشيخ عثمان علي الدرويش كيف حال صاحبه شيخ الظل؟

فأجابه علي الدرويش والدموع تملأ عينيه: كل في فلك يسبحون!

أوصى الشيخ عثمان أحد الشباب أن يوصل علي الدرويش إلى الزاوية، فهو يريد أن يبقى بعض الوقت مع شيخ الظل.

عندما دخل الشيخ عثمان إلى الغرفة ثانية وجد شيخ الظل يحرك سبابته ويردد التشهد بصوت خافت وضعيف، ولم يلبث أن أسلم الروح.

أخذ الشيخ عثمان في البكاء، فقد رحل شيخ الظل إلى الأبد، وجاء الطاقم الطبي على عجل للكشف عن شيخ الظل، حيث أكدوا وفاته.

بدأت الاستعدادات في الزاوية لمراسم دفن شيخ الظل بمقبرة سيدي الأندلسي، وقد أعلم أكثر مشايخ الزوايا الصوفية، الذين تقاطروا على الزاوية منذ الصباح الباكر؛

كانت المقبرة يوم الدفن، قبيل العصر مزدحمة كثيرًا بالناس رجالًا ونساء وأطفالًا جميعهم جاؤوا ليودعوا شيخ الظل إلى مثواه الأخير.

الشرطة كانت منتشرة بكثافة، بما في ذلك وحدات من الدعم المركزي، التي أخذت مواقعها في عدة أماكن، تحسبًا لأي مشاكل قد تحدث.

الغائب عن كل ذلك كان علي الدرويش، فقد اختفى منذ عاد من زيارة شيخ الظل بالمستشفى ولم يعثروا عليه.

بعد تأبين شيخ الظل ودفنه، كان الكثير من الزوار من الرجال والنساء يتحركون في المقبرة على غير هدى، حائرين لا يعرفون ماذا يفعلون.

كان الشيخ عثمان حزينًا جدًا لوفاة شيخ الظل، وحائر كيف للزاوية ان تستمر بعده خاصة بعد اختفاء علي الدرويش.

الزاوية في حاجة إلى دراويش حولها لإعطائها البركة، ولأن رجال الله هؤلاء لديهم من الأسـرار ما يضفي على الزاوية

ظلال البركة، ويبعث الثقة فيها من قبل الزائرين، فلا زاوية بدون دراويش حولها.

سمع الشيخ عثمان أحدهم يقول لبعض الناس الذين يتحسرون على غياب شيخ الظل : نعم اختفى شيخ الظل، ولكن عليكم البحث عن ظله، فظله ما يزال موجودًا بيننا.

انتبه الشيخ عثمان لهذه الكلمات ورنت في أذنه، وقرر أن يتحدث مع هذا الرجل بعد انتهاء الجنازة، فقد يكون هذا الرجل درويشًا و من أصحاب الأسرار !

الحيرة كانت سيدة الموقف، والوجوم كان مسيطرًا على الرجال.

بعض الشباب كان يغالب دموعه لفقدهم رجلًا طيبًا وقريبًا منهم يثقون فيه، وبعض النسوة والفتيات يبكين ويحركن أيديهن في تعبيرات عن الفقد الكبير وعن الفراغ الذي سيتركه شيخ الظل بعده.

في وسط هذا الزحام الحائر من المعزين، اعتلى حميد الجرماني برميلًا فارغًا كان موجودًا بالمقبرة، وأخذ يخبط برجليه عليه بقوة، والبرميل يحدث صوتًا مدويًا يتردد صداه في أرجاء المقبرة.

التفت الناس حيث حميد الجرماني واقفًا على سطح البرميل، وبدأ البعض يتجمع حوله، والجرماني يصيح فيهم:

- أيها الناس.. أيها الناس! لقد مات شيخ الظل واختفى علي الدرويش.

كان يصاحب خطابه تخبيطه برجليه بقوة على البرميل!

- ماذا ستفعلون، وأخذ في الضحك بشكل هستيري.. ماذا ستفعلون؟ لا تدوروا حول أنفسكم! لا تتوقعوا نجاتكم بالدوران فى الفراغ!

لن يشفى مرضاكم.. لن تتزوج بناتكم.. لن تتخلصوا من السحر.. ولن تتخلصوا من العين.. وستظل التابعة تتبعكم! وسيظل الجن يسكن فيكم!.. لن ينفعكم الدوران حول أنفسكم.

اخرجوا من سجنكم وانطلقوا في أي اتجاه ولا تقفوا حيث انتم!

مات شيخ الظل، واختفى علي الدرويش.

ويستمر حميد الجرماني في خطابه وتخبيطه بقوة على البرميل، مصاحبًا ذلك بضحكاته العالية.

***